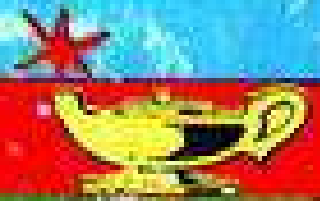


كتابي



اندريه موروا

وجوه الحب السبعة



الطبعة الأولى: ١٩٨٥
الطبعة الثانية: ١٩٨٥
الطبعة الثالثة: ١٩٨٥
الطبعة الرابعة: ١٩٨٥
الطبعة الخامسة: ١٩٨٥
الطبعة السادسة: ١٩٨٥
الطبعة السابعة: ١٩٨٥
الطبعة الثامنة: ١٩٨٥
الطبعة التاسعة: ١٩٨٥
الطبعة العاشرة: ١٩٨٥



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق : اندريه موروا



١ - الحب المنطوى على الفروسية

(الأميرة دى كليف : لمدام لافايت)

هذا الكتاب

● للحب ، في نظر « أندريه موروا » . سبعة أقنعة
 أو سبعة وجوه : فهو تارة عفيف ، وتارة عنيف ..
 تارة طاهر ، وتارة فاجر . تارة خيالي ، وتارة مثالي ،
 وتارة ناري الخ
 وقد تخير موروا - كنموذج لكل وجه أو قناع من
 أقنعة الحب السبعة - قصة من روائع الأدب الفرنسي
 الخالدة : فاختار للحب المنظوي على روح « الفروسية »
 قصة (الأميرة دي كليف) لمدام (دي لافاييت) ..
 واختار للحب « الرومانتيكي » قصة (جوليا ، أو هيلويز
 الجديدة) لجان جاك روسو .. وللحب المنظوي على « فرار
 من الواقع » ، قصة (مدام بوفاري) لجوستاف فلوبيير
 وللحب الملتهب ، قصة « الأحمر والأسود » وغيرها من
 قصص « ستندال » .. وللحب الذي هدفه إرضاء الحواس ،
 أكثر من قصة من قصص « بلزاك » وللحب المناضل ،
 قصة (علاقات خطيرة) للجنرال « دي لاكلو » .. وأخيراً ،
 اختار موروا كنموذج للحب « الوهمي » قصة (غرام سوان)
 لـ « مارسيل بروست » ..

ولم يكتف أندريه موروا ، في تصويره لكل وجه من وجوه الحب السبعة . بتلخيص القصة الكبرى التي رآها معبرة عن هذا الوجه أو ذاك .. وإنما جعل حديثه عن القصة مزيجاً من التلخيص . والعرض . والتحليل . والتعليق ، والحديث عن مؤلف القصة - واختباراته الخاصة في الحب ! - ثم الحديث عن تقاليد المجتمع وعن التزعة العاطفية الغالبة على الناس في العصر الذي عاش فيه وكتب قصته ... إلخ

فالكتاب يجمع إذن بين السرد القصصي . والدراسة الأدبية الممنعة - بطريقة « موروا » الخاصة وأسلوبه الشائق - ومن ثم فهو جدير بالمزيد من الأناة و « التوسع » في تلخيصه وعلى هذا أقدم لك فيما يلي الفصل الأول من فصول الكتاب . وفيه يتحدث المؤلف عن الوجه الأول من وجوه الحب السبعة تتبعها الفصول التالية على التوالي

١ - أطوار الحب !

● إن الصلة بين المشاعر الإنسانية وبين الأدب . لأشبه بالصلة بين الحكومة والرأى العام ! .. فقرة الحكومة تعتمد ، إلى حد كبير ، على الرأى العام .. وفى الوقت نفسه نجد أن الحكومة هى التى توجه الرأى العام وتؤثر فيه .. وهكذا الحال فى العلاقة المتبادلة بين الأدب ومشاعر الناس : فالمشاعر هى التى توحى بالأدب . وتلهم الأدباء .. ومن ناحية أخرى فإن الأدب يساهم بنصيب كبير فى توجيه المشاعر ، وتلويها ، بل و « خلق » مشاعر معينة فى بعض الأحيان ! .. ومن هنا يتأثر الحب مثلاً ، فى كل زمان ومكان ، بطابع القصص المشهورة التى تزوج وتقرأ فيهما !

والغريزة الجنسية - التى هى منبع الشعور بالحب - غريزة ثابتة غير متغيرة ، لا تكاد تختلف بين عنصر وآخر ، وبلد وآخر ، إلا بالقدر الضئيل الذى يختلف فيه جسم الإنسان لكن مظاهر هذه الغريزة ، وهى أساليب الحب وألوانه ، تتغير ويطرأ عليها التعديل والتبديل على مر العصور وإلا فهل يمكن تصور صورتين لعاطفة واحدة ، تختلفان وتباينان أكثر مما يختلف حب « كلو » الشهوانى لـ « دافنيس » ، عن حب « مدام دى مورسوف » العفيف لـ « فيلكس دى فاندينيس » ؟ .. أو حب « الشبغاليه دى جريو » البسيط الساذج لـ « مانون ليسكوه » ، عن الحب الواعى « الحصيف » الذى يكتنه أحد أبطال قصة من قصص « ألدوس هكسلى » للبطلة ؟ !

وبعبارة أخرى : إن الغريزة الواحدة تنتج - تبعاً لفلسفة كل عصر - رد فعل متغير يناسب العصر ، وفلسفته .. وهدف هذا الكتاب هو معالجة مختلف التطورات والتغيرات التي طرأت على عاطفة الحب كما انعكست على الأدب الفرنسي خلال ثلاثة قرون !

مولد الحب الرومانتيكى

● وأول ما يلاحظ أن القدماء لم يجعلوا انفعالات الحب الموضوع الرئيسى لقصصهم ، كما فعلنا نحن فى العصور الحديثة صحيح أن بطل ملاحم «هومير وس» كان يثور غضباً إذا خطف أحد «أسيرته» ، لكن ثورته تلك كان حافزها الشعور بالكبرياء والعزة ، أكثر منه الشعور بالغيرة !.. وقد كان جمال «هيلين» السبب فى نشوب «حرب طروادة» ، ومع ذلك فإن عواطف «هيلين» لا تشغل غير مكان ضئيل من ملحمة «الإلياذة» التى سجلت أحداث تلك الحرب ! وفى «الأوديسة» نرى البطلة «بينيلوبي» (١) زوجة ودية ،

(١) و «بينيلوبي» هى زوجة البطل اليونانى فى حرب طروادة ، المدعو «أوديسيوس» - أو «عولس» - وقد بلغ من وفائها له أثناء غيبته التى طالت عشرين عاماً ، أنها رفضت جميع عروض الزواج التى قدمت إليها خلالها ، رغم يأس الجميع من عودته . وحين ألح عليها المخاطبون ، تحايلت لإرضائهم زاعمة أنها سوف تختار أحدهم حين تنتهى من قطعة قاش كانت تطرزها لكنها لم تنته منها أبداً ، لأنها كانت تفك كل ليلة ما تطرزه طوال النهار !.. وفى نهاية العشرين عاماً ، كوفى صبرها بعودة زوجها إليها !

أكثر منها عاشقة .. وقد كان الحب الذى يخرج عن نطاق الرغبة الجنسية ، يعتبر فى ذلك العصر نوعاً من الجنون ! لذلك لم يجرؤ أديب من أدباء اليونان القدامى - عدا أفلاطون - على أن يتحدث فى أدبه عن الحب العذرى ، الذى يبلغ من عمقه أنه يتطلب الطهر الكامل والعفة المطلقة !

وفى أيام الرومان ازدهر الزنا بينهم ، لكنه كان يعتبر جريمة ، وليس مأساة ! .. وإذا كان شعراؤهم ، وعلى رأسهم « فيرجيل » قد وصفوا ألواناً من عذاب الحب الطاهر ، فإن شاعرهم « أوفيد » قد أشبع هذا اللون من الحب سخرية فى كتابه المشهور « فن الحب » ؟ (الذى قدم « كتابي » صفحات منه فى العدد ٢٨) .

والواقع إن الحب كم عاطفة معقدة - أو الحب الملتبس كما أطلق عليه باسكال - لم يعرف إلا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، حين ترعرع فى أوروبا ، أولاً فى بلاط الأمراء وأجوائهم الشعرية ، ثم فى غراميات الفرسان والمغامرين فلماذا بدأ الناس فى ذلك العصر يسبقون كل هذه الأهمية على « الانفعالات العاطفية والروحية » التى تصاحب الرغبة الجنسية ؟

الوثنية لم تكن تفرض الإخلاص والعفة !

لأن المسيحية أحدثت انقلاباً فى هذا الميدان .. فقد كان الزواج قبل ذلك - عند القدماء - مجرد « عقد منفعة » لا يفرض

١٠ . للحب سبعة وجوه الحب المنطوى على القروسية /

على الزوج أن يكون مخلصاً لزوجته . وبالتالي لا يخلق في أعماقه صراعاً داخلياً . كما أن الوثنية لم تكن تفرض العفة على المرأة ، أو تكبلها بالقيود والأغلال الخلقية الشديدة . فلما وجدت هذه الأغلال ، ضاعفت من حدة العاطفة الروحية – أى الحب – عند كل من الرجل والمرأة !.. يضاف إلى هذين العاملين عامل ثالث بالغ الأهمية . هو ترجمة الشعر العربى « العذرى » إلى اللغة الفرنسية ، ثم الإنجليزية . وما ترتب على ذلك من الترويج للحب المجرد عن صلة الجسد

وأخيراً فإن الحروب الصليبية قد أعانت على ازدهار « الحب » ، لأنها أوجدت لقصصه جمهوراً كبيراً من القراء ، هم الحجاج الذين أثار خيالهم حرمانهم من النساء وبعدهم عن مجتمعاتهن ، فوجدوا متعتهم في قراءة قصص الحب . وفي الوقت نفسه أقبلت النساء في بلادهن على قراءة القصص بعد أن ارتفع مستوى تعليمهن ومركزهن في المجتمع . وأجبرهن سفر رجالهن إلى ميادين الحرب على قتل أوقات فراغهن في القراءة . وفي الحب !

فرسان المائدة المستديرة !

● ومن جهة أخرى . ففي غيبة المحاربين في تلك الحروب لم يبق من الرجال في أرض الوطن . وفي قصور أولئك الغائبين ، غير خدمهم المختصين « البياضين » الذين كان الواحد منهم بمثابة التابع .

أو « الوصيف » لسيدته وسيدته على السواء . فلم يكن يجزؤ على أن يولى السيدة من الحب غير لونه الساذج المنطوى على الاحترام . والمتزه عن كل مطمع دنس وانتشرت يومئذ قصص الحب الذى تغلب عليه نزعة الفروسية - مثل قصة « تريستان وايزولت » وقصص فرسان المائدة المستديرة . وأشهرها قصة الفارس « لانسلو » والملكة « جينفير » . زوجة الملك آرثر . وقد مهدت هذه القصص أذهان النساء لتطور غير عادى فى مصائرهن وأقدارهن . فقد رأين أنفسهن فجأة هدفاً للمغازلة الرقيقة من جانب الرجل . ولسن موضع اشتباهه فحسب ! وبفضل هذه القصص صار فى وسعهن أن يفرضن على الرجال معاملتهن على أساس من الاحترام الذى يوحى به الحب الدائم المستقر - وهى عاطفة ليست من شيمة الرجال فى العادة ! - فبات كل امرأة تتطلب من رجلها أن يكون من طراز « لانسلو » أو « تريستان » . وإن لم يمنعها ذلك من أن تستسلم للعاشق الماغن الذى من طراز « دون جوان » . الذى كان يذيقها الألم فيملأ عليها بذلك حياتها !.. ولكن لتعود من جديد إلى « لانسلو » كى يحميها من نفسها ويضحى بسعادته لينسيها حب دون جوان !.. وهكذا كانت قصص الفروسية تحبب نساء ذلك العصر بنحو حافل بأشباه « لانسلو » من الفرسان الشائقين الذين تشرح لهم صدورهن ويرضون غرورهن !

ونستطيع أن ندرك مدى التطور الذى طرأ على شخصية الرجل

في الحياة الواقعية - نتيجة لشيوع قصص الحب المنطوى على الفروسية ، تلك القصص التي خلقت شخصية «العاشق الشاعرى ١» - نستطيع أن ندرك مدى ذلك التطور إذا تذكرنا أن الرجال الذين أصابهم هذا التطور كانوا من « المحاربين » ، ذوى الطبيعة الاستبدادية العنيفة ، الذين لا بد قد وجدوا - في البداية - كثيراً من المذلة في خضوعهم لتروات امرأة واحترامهم لمشيئتها !.. ومن أطرف أمثلة ذلك أن « إدوارد الثالث » ملك إنجلترا في ذلك العصر ، الذى كان معروفاً بالقسوة والصرامة في أساليب حكمه ، صار بتأثير قصص الفروسية عاشقاً وديعاً خجولاً - من طراز عشاق القرن السابع عشر - يتألم في صمت حين تهجره المرأة التى يحبها ، فلا يستغل سطوته لإعادتها إليه ، رغم أنها امرأة عزلاء .. وهو ملك ! هكذا لا نملك إلا أن نحس بقوة سلطان الأدب ، الذى فرض نفسه على تلك النفس البدائية فأخضعها وهذب من حواشيها !

وكل حضارة إنمّا تنبع عن الشعائر والمراسم التى تفرض على الناس ، فليس ثمة وسيلة لقهر البربرية الكامنة في قلب الإنسان سوى تكييفها بالقواعد الصارمة .. وهذا ما فعله الحب الشاعرى العنيف ، فإن التجارب والمغامرات التى تفرضها على الرجل امرأة أحلامه ، والمبارزات التى يشترك فيها أمام عينيها من أجلها ، والأغاني التى يلحنها غزلاً فيها ، تنتهى بأن تلعب في حياته دوراً هاماً يجعل الرغبة الجسدية تتراجع عنده إلى المرتبة الثانوية . بل وتنسى أحياناً !..

وقد أخضعت القروسية في العالم المسيحي كلا من الحب والحرب ، فكانت هي والحب الشاعري من أقوى عوامل نمو المدنية .

٢ - انهيار الحب الرومانتيكي .. ثم بعثه

● وقد عانى الحب الشاعري العفيف خلال المدة بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر عدة هزات وأزمات :

١ - فعندما كثر العشاق العذريون ، وصار حبه هو الطابع السائد ، مله الناس وبدأوا يسخرون منه ! .. صار « دون كيشوت » رمزاً مألوفاً لمغامرات القروسية ، وكلنا يعلم مبلغ الهزل والاستخفاف اللذين تقابل بهما شخصية هذا الفارس الأبله !

٢ - ولكي يتسع الوقت لتحليل العواطف ، والتحدث عنها ، ولكي يكون الغزو الغرامي بطيئاً ومدروساً ، وبالتالي جديراً بأن يروى ، ينبغى أن يلتقى الرجل والمرأة في وقت الفراغ ، أى في فسحة من الزمن .. والحضارة المستقرة ، كما ينبغى أن توفر للناس المأوى ، كذلك ينبغى أن تتبع لهم الوقت الكافي كي يحبوا .. أى كي يحلموا !

وقد حدث في مستهل القرن الرابع عشر أن بدأت حضارة العصور الوسطى العظيمة في الانهيار .. ولم تكن حضارة الإقطاع قد نضجت واكتملت بعد . كانت الإنسانية تمر في ذلك العصر بمرحلة طويلة الأمد من العنف ، والفوضى ، وعدم الاستقرار

- وهى المرحلة التى تخللتها حرب المائة عام . والحروب الأهلية ،
والدينية المختلفة - فلم تترك هذه الحروب للعشاق وقتاً كافياً
يستمتعون فيه بالهوى العفيف الطويل الأجل . وإنما صار المجال
مجال غراميات قصيرة ضاربة : أقرب إلى الشهوة منها إلى الحب ..
وقد تركت هذه الغراميات طابعها فى قصص « بوكاشيو » (الإيطالى) ،
و « رابليه » (الفرنسى) ، و « شوسر » (الإنجليزى) إلخ .

الريف لا يوحى بالشعر والهوى !

وخلال هذه «النكسة» فى المشاعر العاطفية ، لم تجد النساء ملجأ
عاطفياً لمن سوى الشعر . وبخاصة الشعر الريفى ومن المفارقات
الملحوظة فى هذا الصدد ، أن المتتبع لإنتاج الشعراء والروائيين منذ
القدم (من « فيرجيل » إلى « شكسبير » . ومن « رونسار » إلى
« راكان » ، ومن « روسو » إلى « تولستوى ») يلمس فى هذا
الإنتاج تعبيراً عن ميل البشر المستمر إلى أن يحلموا بعصر ذهبي
موشى بالخيال ، يستسلم فيه الرعاة والراعيات إلى عواطفهم الفطرية ،
فى جو من جمال الطبيعة الساحر وليس المرء فى حاجة إلى أكثر
من أن يعيش زمناً فى الريف . ليدرك أن الطبيعة هى على العكس
مما يتصور هؤلاء قاسية ، واقعية . أبعد ما تكون عن أن تصلح
كجو مناسب للهوى والخيال . وأن حياة الرعاة وسط قطعان
الماشية ، هى آخر لون من ألوان الحياة إيحاء بالمغامرات العاطفية ..

بل إن الباحث ليتبين أن أرق وأبلغ أبيات الشعر العاطفي « الريني » ،
نظمها شعراء المدن والحضر !

٣ - وأخيراً . في بداية القرن السابع عشر - خلال حكم
الملك هنري الرابع - عاد النظام والاستقرار يستبان في فرنسا ..
فبعثت فيها العواطف العفيفة من فورها .. وعلى أثر إخساد ثورة
(الفروند) - التي كانت آخر صيحة للإقطاع المحتضر - شهد القرن
السابع عشر انتقال المجال الحيوي لنشاط النبلاء واهتمامهم ، من
الحرب والسياسة إلى الصالونات ! .. واضطر العظماء والبارزون
من شخصيات عصر النهضة إلى قبول الخضوع لسلطة الدولة ، أي
الملك . بعد أن كان كل منهم حاكماً بأمره في إقطاعيته ! ومن
الخطأ تصور أن هذا التطور قد تم بسهولة ويسر .. ولعل مذكرات
الكردينال دي ريتز من أبلغ صفحات الأدب الذي يعطينا فكرة
واضحة عن شخصيات أولئك الإقطاعيين من جماعة (الفروند) ،
وفي مقدمتهم : لاروشفوكو ، مدام دي لونجفيل ، لاجراندموازيل ،
لوزان وغيرهم من « الحيوانات البشرية » العظيمة الجميلة . التي
يصعب ترويضها . وقد صدق الدوق « سانسيمون » حين وصفهم
في مذكراته بقوله : إن كل ما يصلح له هؤلاء النبلاء ، هو أن
يسموا إلى حثنتهم بأنفسهم !

٤ آلاف قتيل في المبارزات

● وهل أدل على ذلك من أن أربعة آلاف منهم لقوا حتفهم في المبارزات ، أثناء حكم لويس الرابع عشر ؟ ! .. وأن هذا الرقم ارتفع إلى سبعة آلاف فيما بين عامي ١٥٤٩ و ١٦٠٧ ؟ .. ذلك أنهم عندما اضطر الملك - كى يعيد النظام والأمن إلى ربوع البلاد - إلى منعهم من خسم منازعاتهم الخاصة بالاشتباك في حروب بين جيوشهم المسلحة - وعندما لجأ إلى « حبسهم » في نطاق البلاط والصالونات ، التي كانت بالنسبة لهم أشبه بالأقفاس ، عمدوا إلى تحطيم قضبان هذه « السجون » بابتكار تقليد المبارزة بالسيف ! .. ومن هنا نشأت ضرورة فرض « شكليات » خاصة ، مغالى فيها ، عليهم . شكليات بلغت حد الخدلة ، فبات طابعهم الغالب : « الأدب المترمت في الحركات والألفاظ .. والتوحش الساذج في الأخلاق » !

وقد كان المثل الأعلى للرجل في القرن السابع عشر هو « العظمة » حتى لتجد هذه الصفة تلصق بكل شيء ، وتكرر في كل صفحة تقريباً من صفحات قصة « الأميرة دي كليف » ، التي نلخصها فيما يلي .. وكان الناس في ذلك العصر متعطشين للمجد ، وكانت قوة العواطف الملتية تبدو في نظرهم عنواناً لهذا المجد كانوا يعتقدون أن الإنسان الكريم النفس ، النبيل المحتد ، ينبغي أن يحب

بانفعال وعنف ! .. كان الكل يكون بسهولة عجيبة . وتجرى على ألسنتهم وفي كتاباتهم الإشارة في كل مناسبة إلى « أنهار العبرات والدموع ! » وعند موت « تورين » يبكي المارة جميعاً في الطرقات . وإذا كان أعظم كتاب ذلك العصر - مثل راسين . ومدام دي لا فاييت - يتحدثون عن هذه الانفعالات بلهجة متحفظة وتعبيرات متواضعة . فإن هذا التواضع يزيد تلك المشاعر جمالاً . لأنه يسيطر على عواطف أقوى وأعنف .. أو بعبارة أخرى أن تلك الأعمال الأدبية الكلاسيكية أشبه بعاصفة أو دوامة من العواطف مخففة الوقع . مهذبة الحواشي إلى الحد اللائق

دستور الحب !

● وقرب منتصف القرن السابع عشر عاش في باريس جيل من الأقوياء ذوي الطبائع العنيفة . الذين فرض عليهم طراز من الحياة لا يسمح لهم بإطلاق سراح عواطفهم . والإفصاح عنها بالأفعال .. فلماذا كان أولئك الأسرى غير المروضين يطالعون ؟ .. إنهم لينشدون في الكتب تنفيساً عن الأفعال « العظيمة » والانفعالات العظيمة التي تأبأها عليهم الحياة الآن . وهكذا . تعود « مودة » قصص الغرام المنطوى على الفروسية .. حتى لنجد « مدام دي سيفينييه » . رغم كل اترانها ، تطالع قصة من هذا اللون هي قصة « سيروس العظيم » .. بل ونقول في تقريلظها « إن جمال العواطف ، وعنف

المرغبات . وعظمة الأحداث . وتتابع المبارزات الرائعة على نسق يقرب من الإعجاز كل ذلك يحملنى على أجنحته بعيداً إلى دنيا الخيال والأحلام . كما لو كنت صبية صغيرة !

وقد شغفت أوربا بأسرها يومئذ بقصة أونوريه دورفيه الريفية المشهورة « أستريه » . التى كتبها فى خمسة آلاف صفحة - استغرقت كتابتها منه أربعة عشر عاماً ! - وقد أعاد الكثيرون من الفرنسيين أيامئذ قراءتها المرة بعد المرة حتى حفظوا أدق دقائقها . كما يحفظ المتدينون التوراة ! والقصة تصور غرام الراحية « أستريه » - نسبة إلى الربة أستريه ابنة جوبيتر - والفتى « سيلادون » . الذى اعتبرته فرنسا يومئذ نموذجاً للعاشق المثالى وكان دستور سيلادون فى الحب هو دستور الهوى الشاعرى العفيف . ويتلخص فى ثمانى مواد :

١ - كن مفرطاً فى حبك

٢ - لا تطو قلبك على عاطفة أخرى ملتهبة غير هذا الحب

٣ - أحب امرأة واحدة فقط

٤ - فليكن همك الأوحاد إسعاد المرأة التى تحبها .

٥ - دافع عن محبوبتك ضد كل أذى أو عدوان

٦ - انظر إليها باعتبارها كاملة فى كل الصفات .

٧ - ولا تكن لك إرادة غير إرادتها

٨ - ولتعد بأن تظل مقيماً على حبها على الدوام !

وعاش المجتمع كله وفق هذا الدستور كان هدف الجميع أن يقوموا بجلال الأعمال من أجل المرأة التي يحبون ، ويعودوا من المعركة ظافرين كي يفوزوا بالمرأة التي يحبون وحرص أشهر الرجال وأحكم الحكماء على أن يجعلوا من الحب « واجباً » ، متبعين قول باسكال « إن الحب لا يكون جميلاً بغير إفراط فالذي لا يحب بإفراط ، لا يحب حباً كافياً » وكانت عقيدتهم هذه في الحب تنطوي على شيء من القداسة : فالمرء ينبغي أن يضحى بكل شيء من أجل الحب ويمرض من فرط الحب بل يموت - فخوراً - من الحب ! وبالاختصار ، فإن البطولة المثالية حين عجزت عن الإفصاح عن نفسها بالتفوق في الحرب ، وجدت ملجأها في الحب !

لكن مثل هذه العواطف السامية تستمد قيمتها الكبرى من قدرتها ، فإذا شاعت فقدت أكثر قيمتها ففي وسعنا أن نقبل من « باسكال » أو « لاروشفوكو » أن يحب على هذا النمط ، أما إذا غدا العنف في الحب « قاعدة » ، فإن الأمر يبدأ في أن يصبح باعثاً على السخرية وهل يمكن أن يكون هذا الحب الذي يشغل الإنسان مدى الحياة ، إلا « لعبة » ؟.. لقد قيل عن الشيفالييه دي سيفينييه ، إن « أمله الوحيد كان أن يموت من حب لم يشعر به ! » وقد كان الإخلاص للمعشوقة إلى حد التناهي أمراً رائعاً عندما كان يوحى بجلال الأعمال ، لكن الحب إذا استغرق من الرجل كل

٢٠ للحب سبعة وجوه (الحب المنطوى على الفروسية)

كيانه ، سرعان ما يصبح منافياً للروح الاجتماعية .. والحال يحدث
رد الفعل فيوقع المجتمع عقابه الصارم بمثل هذا العاشق ،
بالاستهزاء به !

وهكذا نرى « مولير » يسخر من هذه المغالاة ، التي تلبس
الرجال العاديين أثواب الأبطال .. ويأتى « لاروشفوكو » فيحلل
العواطف ، ليجد فيها رواسب من حب الذات ! .. وتأثير هذين
الواقعيين وأمثالهما ، « ينقى » الذوق العام ، فتسخر الطبقة المتوسطة
« البورجوازية » من طراز ذلك العاشق الخيالى .. كما يسخر منه
كل « رجل أمين » يكره التظاهر بحب أقوى من الحب الذى يشعر
به بالفعل !

حتى النساء ، ضفن ذرعاً بطراز العاشق الذى تغالى فى
احترامهن ! .. وصرن يرددن فى لهجة التذمر : « آه ، لماذا لا يكون
أجراً قليلاً من ذلك » ؟

وهكذا يكتمل رد الفعل ، معلناً مولد اللون التالى من ألوان
الحب : الحب الرومانتيكى .. الذى يتطور فى القرن الثامن عشر
إلى الحب الداعر !

ولكن قبل أن يختفى ذلك الحب الشاعرى المنطوى على الفروسية ،
ينتج درته الخالدة : قصة « الأميرة دى كليف » . وهذه القصة
تكاد تشبه المعجزة ، لأنها تحتفظ بتوازن مثالى بين قوة العواطف ،
واعتمادها لهجتها .. وأن المدينة الفرنسية لتدين بمظهر من أعظم

مظاهرها - وهو فن تحليل العواطف - للمرأة التي كتبت هذه
 للقصة الخالدة .. فلئن كانت اللغة الفرنسية لا تجارى في دقة وجمال
 تصويرها لأرق ظلال الحب ولئن كان حوار الحب قد أصبح
 في فرنسا أعذب وأبرع الفنون على الإطلاق .. فإن جانباً كبيراً من
 هذا الفضل يرجع إلى هذه المرأة الحاذقة ، الحكيمة ، المتواضعة ،
 التي نجحت - دون سخرية ودون مغالاة - في العودة بفن القصة
 الطويلة إلى المجال الواقعي والتي أثبتت أن جمال وحرارة أقوى
 عاطفة ، يمكن تصويرهما بأبسط لغة
 وهذه المرأة التي أعنيها هي « مدام دي لافاييت » .

٢ - المؤلفة الموهوبة

● كانت « مدام لافاييت » تعرف قبل زواجها باسم « ماري مادلين
 دي لافيرن » تزلت أمها في شبابها ، فتروجت من الشفالييه رينو
 دي سيفينييه - الذي أنجبت أسرته الأدبية الفذة مدام دي سيفينييه -
 وهكذا نشأت رابطة القرى بين أشهر أديبتين في القرن السابع عشر !
 وقد تلقت ماري من التعليم أقصى ما كانت تتلقاه الفتيات في
 عصرها - ثم تتلمذت - مثل مدام دي سيفينييه أيضاً - على الشاعر
 الأديب « ميناج » ، فعلمها اللغة اللاتينية . التي أكسبتها طلاوة
 الأسلوب وجمال التعبير .. وحين قدمت إلى المجتمع ، حسب تقاليد

عصرها . ظفرت بإعجاب الرجال وعاشت فترة من الزمن حرة طليقة . ورغم ذلك فقد ردت « الكردبنال دى ريتز » خائباً حين حاول مغازلتها وخطب ودها ! وعندما بلغت الثانية والعشرين تزوجت - باختيارها - الكونت دى لافاييت . وهو نبيل غبي كان يعجز عن مجاراتها في الحديث والمجتمعات . وهى الأدبية اللامعة الذكاء . الجذابة الحديث فلم يكن يجد بداً من أن يلوذ بالصمت !

وطفت شخصية الزوجة على شخصية زوجها . فصح فيه وصف « لابرويير » للأزواج المغمورين « هناك نساء بظمن . بل يدفن أزواجهن . إلى حد إغفال ذكرهم في المجتمع . بحيث يتساءل الناس عن الزوج مهم « أهو ما زال حياً ؟ أم أنه قد مات ؟ » . وبحيث تقتصر وظيفته في الأسرة على التزام الصمت التحجول والانقياد وراء إرادة زوجته . ولولا عجزه عن الحمل والولادة لقلنا إنه الزوجة وهى الزوج !

وبقدر ثدله الكونت في حب زوجته . لم تكن هى تحبه على الإطلاق . بحيث يغلب على الظن أنها تزوجته بدافع المنفعة . تأمناً لمركزها الاجتماعى !.. وفعلاً لم يكده بمضى زمن حتى تركته فى قصره الربيعى وعادت إلى باريس . حيث عاشت منفصلة عنه . غير شاعرة بوجوده . حتى مات سنة ١٦٨٣ . بعد ثمانية وعشرين عاماً من زواجهما !

وفي باريس اتصلت رابطة الصداقة المتينة بين الزوجة وبين شقيقة زوجة الملك لويس الرابع عشر . فعاشت ترتع معها في بلاطه زمناً .. حتى ماتت الأخيرة . فهجرت «مدام دي لا فاييت» البلاط واعتزلت حياة الصالونات الصاخبة .. ثم عكفت في عزلتها على تأليف القصص ، مستعينة على ذلك بأسلوبها الأدنى الرصين ، وطبيعتها الحاملة ، ورقتها العاطفية

وفي هذه الأثناء تعرفت إلى الأديب الفرنسي الكبير «لاروشفوكو» الذي اشتهر في شبابه بمغامراته الغرامية والسياسية . التي كان منها إقدامه على خطف الملكة «آن» ملكة النمسا وإحدى وصيفاتها أثناء نزولها في ضيافة لويس الثالث عشر والكردينال ريشيليو ! .. كما كان من مغامراته غرامه بالدوقة «دي لوجفيل» . وهو الغرام الذي أصيب من جرائه برصاصة في رأسه كادت تفقده بصره ، وخلفت فيه منذ ذلك الوقت عاهة مستديمة ورغم ذلك فقد خانت المرأة في النهاية !!

وعلى أثر صدور العفو العام عن جريمة اختطاف الملكة . اتخذ لاروشفوكو لنفسه منى اختيارياً في قصره الريني ، حيث عاش فترة من الوقت مضطرب الوجه . يرندى نظارة سوداء على عيبيه المصابتين .. لكنه عاد إلى باريس بعد وفاة الوزير «مازاران» وافتتح فيها من جديد قصره الفاخر الواقع على ضفة السين – وكان يومئذ

فى الثامنة والأربعين - وجعل يقضى أوقاته متنقلا بين صالونات الأدبيات الجميلات ، يؤلف مع واحدة أناشيد الغزل ، ويؤلف مع الأخرى عبارات الحكمة والأمثال الماثورة وأشيع وقتئذ أنه صار عشيقاً لمدام دى لافايت ، لكن إحدى الموثوق برؤايتهن نفت ذلك ، جازمة بأن « العلاقات بينهما ظلت شريفة لا تتعدى الصداقة .. فإن تمسك الاثنين بالدين قد قص أجنحة الحب ! »

ورغم ذلك فقد ظل الأديب الكبير يغادر قصره كل يوم كى يزور صديقه فى قصرها بشارع « فواجيرار » وكانت فى القصر حديقة جميلة تتوسطها نافورة ، قالت عنها مدام دى سيفينييه « إنها أجمل بقعة فى باريس يزدهر فيها الفكر » ، وكثيراً ما سهر فيها ثلاثهم فى ليالى الصيف إلى ساعة متأخرة من الليل .. واشترك الصديقان فى تأليف رواية قال عنها الناقد الشهير (باسى) « من حسن الحظ أن مسيو لاروشفوكو ومدام دى لافايت قد جاوزا ربيع العمر ، وإلا لاشتركا فى عمل أمور أخرى معاً غير التأليف . وكنا نحن حرمانا من كتابهما الرائع ! »

واسترجع الاثنان ماضيهما فى ذاكرتهما ، فبعث هو فى ذاكرته غراميات شبابه .. وبعث هى غراميات « الملموازيل مارى دى لافيرن » - الفتاة التى كانت كاتها ! - وهكذا حلقت روحهما العجوزان فى سماء الخيال عائدتين بصاحبيهما إلى ربيع الحياة الجميل .

قبل أن يلتقيا ويتعارفا.. وكانت تلك بذرة قصة «مدام دي كليف»
 - التي سنلخصها فيما يلي - والتي لم تستطع مؤلفتها ، أو لعلها لم ترد ،
 إخفاء التشابه الكبير بين بطلتها وبينها .. ثم بين بطلها ومييو
 «لاروشفوكو» !

٣ - القصة

● نحن في فرنسا في عهد الملك هنري الثاني ، وفي بلاطه ..
 حيث يتم الاتفاق على زواج «الأمير دي كليف» من «المدموازيل
 دي شارتر» ، وهي فتاة ذات حال ممتاز وخلق ممتاز ، لقنتها أمها
 آداب الفضيلة وعلمتها واجبات المرأة المثالية .. كانت تروى لها
 قصص الحب الواقعية وتظهر لها ما فيها من خير وشر ، ومساوئ
 ومحاسن ، وأمن ومخاطر .. وتقص عليها أمثلة من خداع الرجال
 وخياناتهم ، وأمثلة من الفواجع العائلية التي كان سببها الحب غير
 المشروع ، والعشق الحرام .. ثم تقارن بينها وبين الهناء المقيم الذي
 يسود بيت المرأة الفاضلة ، وتخلص من ذلك إلى الإشادة بمدى
 رفعة الشأن والكرامة التي تكفلها الفضيلة للمرأة ذات الجمال
 والحب ..

وهكذا لم يكد يتم الاتفاق على تزويج الفتاة من الأمير حتى
 أنتجت تعاليم الأم ثمارها ، فنظرت الزوجة إلى زوجها نظرة تقدير
 واحترام ، وثقة في المستقبل ، وعزم على الإخلاص والوفاء له ..
 ولم تكن الغريزة قد جربت الحب ، فخیل إليها أنها أحبت زوجها ،

بينما هي لم تحبه على الإطلاق !.. لكن الحقيقة لم تخف على الزوج
 المحرب ، فأدركها منذ البداية . وأحزنه أن لا تتجاوز عواطف
 زوجته نحوه حد التبجيل والعرفان بالجميل . فكان يعاتبها في رفق
 ولين - بين الحين والحين - قائلاً لها « هل كان يمكن أن
 لا أكون سعيداً معك ؟ ومع ذلك فالحقيقة أنني غير سعيد .. إنك
 لا تشعرين نحوي بغير العطف - الذي لا يكفيني ! - وعاطفتي
 المتقدمة نحوك لا تلمس من قلبك وحسك أكثر مما لو كنت قد
 تزوجت منك طمعاً في مالك . وليس في جمالك ! »

فتجيبه هي « إن اتهامك لي ظالم . فلست أفهم فيم تطمع مني
 فوق ما أعطيتك ! ؟ بل يبدو لي أن صلتنا لا تسمح لي بإعطائك أكثر .. »
 - إني لا أظفر منك بحبك ولا حتى بميلك . ووجودي لا يثير
 بهجتك ولا انفعالك !

- لا أحسبك تشك في أنني أسر برؤيتك . بل ويحمر وجهي
 أحياناً حين نلتقي . مما هو كفيل بإقناعك إن مرآك يثير انفعالي حقاً ،
 لا ومها !

- لن يخذعني احمرار وجهك . فهو لا ينبع من قلبك !
 ورغم ذلك فإن شكوكه تشعل حبه أكثر مما تطفئه !.. ويستمران
 في حياتهما المشتركة ، لكنه لا يحس بأنه سعيد ، السعادة الحقة ،
 وإنما تظل تشوب هناءه مرارة نفسية مزمنة !

● وبينما هما على هذه الحال ، يتدخل القدر فتلتقي الزوجة في حفلة ساهرة بالرجل ذى الشخصية الخلابه « مسيو دى نيمور » زهرة المجتمع الباريسى وأكثر رجاله « رجولة » وإغراء . فيعلق به قلب « مدام دى كليف » وتوليه من النظرة الأولى حباً لم تكن تحب نفسها قديرة عليه !.. تحبه لكنها تأبى الاعتراف لنفسها بهذا الحب ! ويحبها هو بدوره ، وفي سره : نفس الحب الصامت المكتوم - فإنه يكتم حبه عن الجميع ، وعنها هي في مقدمة الجميع ! - ولولا ما يمدّها به حبها من إحساس مرهف ، لتعذر عليها أن تتبين وتتابع نمو هذا الحب في قلبه ، ثم في حركاته .. فتصرفاته !

لكن شخصاً آخر يحس من فوره بسعى الحب الخبيث في القلبين المغلقين وهذا الشخص هو الأم - التي تفهم في العادة هذه الأمور بوحى من غريزتها ، فيتحطم قلبها أو تطير فرحاً ، وفقاً لطبيعة حلقها وتربيتها ! - لكن « مدام دى شارتر » من الفريق الأول ، فتراها وهي على فراش الموت تفتاح ابنتها في الأمر :

« إنك تميلين إلى مسيو دى نيمور لست أطلب منك اعترافاً بذلك ، فما عدت أستطيع الاعتماد على صراحتك كي أرشدك إلى الصواب ولقد لحظت هذا الميل من جانبك منذ زمن ، لكني آثرت عدم مفاطحتك في الأمر كي لا أنبهك إليه . إن كنت غافلة عنه !.. أما الآن فأحسبك قد نضجت لكل شيء .. إنك يا ابنتي على

حاقة الهاوية . وسوف يحوجك الأمر إلى مجهود جبار وإجراءات
عنيقة كي تنقذ نفسك من التردى فيها !.. فكرى فيما أنت مدينة
به لزوجك ، وما أنت مدينة به لنفسك ، واعلمى أنك توشكين
أن تفقدى السمعة الكريمة التى اكتسبتها ، والتى طالما تمنيتها لك
فى لطفة .. فتذرعى بالقوة والشجاعة يا بنيتى ابتعدى عن محيط
هذا الرجل اجعلى زوجك يأخذك بعيداً !.. لا نخشى أو ترهى
اتخاذ أى إجراء صارم أو قاس فى سبيل النجاة من الخطر المحيى
بك فهما بدا لك الإجراء أثمياً فى البداية ، فإنه لن يلبث أن
يصير فى النهاية أرحم من شرور الحب المحرم ، الذى لو تورطت
فيه لاستقبلت أنا الموت مرحلة مغتبطة كى لا أعيش وأراك ملوثة ! .

• • •

● ويفلح مسيو نيمور فى جعل « مدام دى كليف » تفهم أنه
يجبها !.. ويصل إلى هدفه هذا بغير أن يتفوه بكلمة يمكن أن
تصلحها بل إنه يقول لها على العكس « إن النساء يحكن على
مبلغ حب الرجل لهن بمقدار تفانيه فى إظهار شعوره نحوهن
ومدالاته فى إدخال السرور إلى قلوبهن . وملازمته إياهن فى الغدو
والرواح .. ولكن هذه مهمة سهلة للغاية . لاسيما إذا كن جميلات ،
أما المهمة العسيرة حقاً فهى حرمان الرجل نفسه من مسرة ملازمتين ،
وتجنبه الاقتراب من خشية عيون الناس . بل خشية أن يلحظن هن
أنفسهن شعور الرجل نحوهن !

وتفهم « مدام دي كليف » أنه يقصدها بكلامه . لكنها تخفى عنه أنها فهمت . وإن كانت كلماته تثير في نفسها انفعالا حاداً . فإن أشد الكلمات غموضاً ، حين تصدر من الشخص الذي تحبه . تحدث من الاضطراب أضعاف ما تحدثه المفاتحة الصريحة من شخص لا تحبه !

لكنها رغم ذلك تفضح مشاعرها بتصرفات صغيرة . فيينا يركض مسبو دي نيمور بجواده إلى جانب الملك . يسقط من على ظهر الجواد فيصاب إصابة يسيرة . وإذ ذاك يبدو الانزعاج على وجه المرأة العاشقة ، فيدرك الرجل فوراً أنها تحبه بقدر ما يحبها !! . أما هي فيحنقها من نفسها أنها قد أفصحت عن سرها الدفين ، فتطلب إلى زوجها أن يرحل إلى الريف ، بحجة أنها بحاجة إلى تغيير الهواء لأن صحتها ليست على ما تروم !

لكنه لا يتلقى كلامها جاداً ، إذ يراها أتم ما تكون صحة ونضارة ! وإذ ذاك لا ترى مفراً من أن تواجهه بقولها : « لا تضطرنى إلى الاعتراف لك بشيء ليست لدى القوة على الاعتراف به ، رغم أنني حاولت ذلك عدة مرات .. وينبغي أن تذكر أنه ليس مما يقتضيه الحذر أن تعرض امرأة في سبي لمغريات بطانة البلاط ! »

فصاح بها مسبو دي كليف : « ماذا تقصدين يا سيدتى ؟ .. »

لست أجرو على التصريح لك بما فهمته من كلامك . خشية أن أهينك بتصريحى ! »

وعند هذا ارتمت على ركبتيها أمام قدميه . وقالت متخاذلة
« إذن فأنا مضطرة إلى الاعتراف لك بما لم تعترف به امرأة لزوجها ،
مستمدة القوة على ذلك من براءة تصرفاتى ونواياى . إن لدى من
الأسباب ما يجعلنى أفضل الابتعاد عن مجتمع البلاط . لأننى أريد
تجنب الأخطار التى كثيراً ما تصيب النساء فى مثل سى . إنى لم أظهر
قط أية بادرة من بوادر الضعف . وأعتقد أننى لن أفعل ذلك ،
إذا سمحت لى بالانسحاب من المجتمع الذى أخشى على نفسى منه ! ..
ومهما تكن خطورة الإجراء الذى أطلبه . فإنى مغتطة به .. كما
أظل جديرة بك ! . أتوسل إليك أن تغفر لى ما قد ينم عنه كلامى
من مشاعر تؤلمك . فإننى على الأقل لن أؤلمك بتصرفاتى . ولتذكر
جيداً أن الخطوة التى أتخذها الآن إنما تملئها على المحبة والتقدير لك ،
اللذان يفوقان أقصى ما أظهرته امرأة لزوجها فى يوم من الأيام ..
فبربك أرشدنى . وارث لى . وأقم على حبك لى .. إذا استطعت ! » .

فجيبها وإجماً « إننى لم أستطع يوماً أن أوقف الحب فى قلبك ،
وها أنا أراك تخشى أن تكونى قد وقعت فى هوى رجل آخر
فمن هو يا سيدنى ذلك السعيد الذى يوقف فى نفسك هذا الخوف ؟ »



فيجيبها واجمًا
إنهم لم أستطع يومًا أن أوقف الحب في قلبي

● لكن الزوجة لم تكذ تنهى من اعترافها حتى نلمت على أنها تفوهت به !.. فقد رأت زوجها ينهار تحت وطأة الصلعة ويستسلم ، لليأس والإحساس بالتعاسة ، مغالياً فى تقدير خطورة الأمر ، مفسراً ألف حركة وحركة صدرت من زوجته فى الماضى ، على ضوء هذا الاكتشاف الخطير الذى حطم قلبه !

وحين خرج النعس وانفردت هى بنفسها ، استعادت فى ذهنها كل ما قالت فهالها بشاعة الأمر ! لم تستطع أن تصدق أنه وقع .. أحست أنها قد دمرت حب زوجها وتقديره لها ، وأنها حفرت بينها وبينه أخدوداً لن يستطيع ردمه وعبره قط !.. فساءلت نفسها لم فعلت ذلك ، وأقلمت على هذا الأمر الجليل ؟.. فتبينت أنها إنما اقترفت ذلك الجرم برغمها .. وأقنعنا غرابة اعترافها — الذى لم تعرف له سابقة — بأنها قد تهورت تهوراً لا سبيل إلى التكفير عنه !

وحتى تلك الآونة لم يكن الزوج قد عرف من يكون غريمه !.. لكنها حين صارت تتجنب رؤية مسيو دى نيمور ، أدرك الزوج أنه هو الغريم الذى يبحث عنه .. فواجهها بهذا « الاستجواب » المهرج : « هل كنت تجرئين على رفض مقابله لو لم تعلمى جيداً أنه يفهم مغزى هذا التهرب ، ويدرك الفارق بينه وبين « عدم المبالاة » ؟!.. ولكن لماذا تكلفين نفسك مشقة هذه الصرامة إزاءه ؟.. أواه يا سيدتى ، إن كل شىء يقبل من مثلك ، إلا الفتور !.. لكم

أنا شقى ، بل أشقى الرجال قاطبة ! فها أنت زوجتى ، وأنا أحبك
كما يحب الرجل خليلته لكنك تحبين رجلاً آخر وهذا الآخر
هو أكثر رجال المجتمع جاذبية . وهو يراك كل يوم ، ويعلم
أنك تحبينه ! »

° ° °

● وأخيراً بسمح مسيو دى كليف لزوجته بالسفر إلى الريف ،
إلى « كولومبيه » وهناك تستقبل صديقة لها . وتقضى معها
بعض الوقت . وحين تعود الصديقة إلى باريس تروى فى أحد
المجتمعات - عن غير قصد - أن مدام دى كليف مولعة بقضاء
شطر من الليل وحيدة فى « الكشك الصينى » الكائن فى وسط الغابة
المحيطة بقصرها !

فلا يكاد مسيو دى نيمور يسمع هذا القول . حتى يدور فى
ذهنه هذا الخاطر : هل يهرع إلى هناك ليشبع بصره من حبيبته
- عن بعد - دون أن تراه ؟

وكأنما يقرأ مسيو دى كليف - الذى كان حاضراً - أفكار
غريمه ، ويستنتج من فوره إن هذا لن يفوت الفرصة التى سنحت
له لرؤية محبوبته .. فيرسل رسولا أميناً كى يتربص لها فى الغابة ،
ويرى ما يكون من سلوك زوجته !

وبالفعل يسافر دى نيمور إلى (كولوميه) . ويدخل الغابة ،
ثم يتسلل إلى مكان يستطيع منه أن يرى حبيبته ! ويجدها حيث
توقع أن تكون . فإذا هي أجهل وأفتن حسناً مما كان يعرفها . بحيث
يضطر إلى أن يبذل جهداً جباراً كي يجمع شوقه إلى إظهار نفسه
لها !.. لقد كانت الليلة دافئة . فلم تستر الفتاة كتفها بشيء ،
سوى شعرها المرسل الطويل . وكانت تضطجع على أريكة مريخة ،
وأمامها منضدة صغيرة قد انتثرت عليها بضعة أشرطة للشعر من
مختلف الألوان . وراها عاشقها تختار أحدها . فإذا هو من نفس
لون الوشاح الذى ارتداه هو أخيراً فى مناسبة رسمية !.. ثم رآها
تأمل طويلاً صورة أمامها . فإذا هي صورته هو !

لعل من المستحيل أن يستطيع كاتب تصوير شعور الحب فى
تلك اللحظة . وهو يرى حبيبته فى قلب الليل . فى أجهل بقعة فى
العالم : مستغرقة بكل كيائها فى أفكار وخيالات تدور كلها حوله
هو . وحول حبه له . الذى تخفيه عنه .. وهى تجهل وجوده على
قيد خطوات منها . وتجهل أنه يراها !.. إنها متعة لعل عاشقاً آخر
على الأرض لم يستمتع قط بمثلها !

وتظل مدام دى كليف تجهل كل شيء عن زيارة حبيبها للغابة
فى تلك الليلة ! فى الوقت الذى نشاء فيه المصادفة الممقوتة أن
ينحط الرسول فى نقل نتيجة تجسسه على الزوجة إلى مسامع زوجها ،

فيهم هذا - خطأ - إن الحبيين التقيا في تلك الليلة . وقضيا بعض الوقت معاً في خلوة !

وبعجز التعس عن مقاومة تأثير الصدمة . فيصاب من فوره بحمى شديدة .. وتخطر زوجته بمرضه . فتخف إليه بغير إبطاء وفيما هي منكثة على فراشه تبكي من فرط قلقها . يقول لها بصوت واهن متقطع « إنك تذر فين دموعاً غزيرة يا سيدتى . أسفاً على وفاة أنت سببها لكنها لا تستحق منك هذا الحزن البالغ الذى نظهرينه !.. لماذا صار حتى بحبك لمسيو دى نيمور ما دامت عفتك أضعف من أن تستطيع مقاومته ؟.. إننى أكن لك حياً كان بكفى لأن أظل مخدوعاً عن الحقيقة ! أعترف لك بهذا والعار يقتلنى .. ولكم اشتقت لذلك الأمان الزائف الذى حطمته بصراحتك !.. فلماذا لم تركبى مستمتعاً بالعمى المبارك الذى ينعم به أكثر الأزواج ؟ لقد كنت كفيلاً بأن أعيش حياتى جاهلاً بحبك لمسيو دى نيمور !.. أما الآن . فإنى أموت شاعراً بأنك قد جعلت الموت محبباً إلى .. فإننى بعد حرمانى من الحب والإعزاز اللذين كنت أحسهما تحوكم . لن أستطيع الحياة بل إنها قد غدت كريهة فى عيني !.. وداعاً يا سيدتى . وسوف تفتقدين يوماً الرجل الذى أحبك أصدق الحب وأوفاه !

ويلفظ آخر أنفاسه !.. فتحزن الزوجة عليه حزناً يفوق حدود التعقل .. ولا تفارق خيالها صورته وهو يموت . من أجلها .

مقيماً على حبه لها فنتهم نفسها بجريمة « عدم شعورها بالحب نحوه » كأنما الأمر كان فى مقدورها !

ويقضى « مسيو دى نيمور » أيامه حائماً حول الدار التى تضم محبوبته . حاسباً أنها ما دامت تخلص له الحب فسوف تقبله زوجاً ، بعد أن زال من الطريق العائق الذى كان يفصل بينهما .. وزال معه الواجب الذى كان يفرض عليها أن تقاوم حبها . وتقمع مشاعرها ! ويرتمى العاشق عند قدمى فاتنته ذات يوم ، فتعترف له بأنها تحبه : وأنها طالما أحبته « إنه ليسعدنى أن تعلم ذلك . ولو أننى لست واثقة تماماً مما إذا كنت أصارك بذلك الآن بدافع حبنى لك ، أم حبنى لنفسى ، كما أستريح من هذا العبء الجاثم على ضميرى سباً وإن اعترافى لن تترتب عليه أى نتائج . فلسوف أظل أراعى الحدود الصارمة التى يفرضها على واجبى » !

وبصعق دى نيمور ويحاول إقناعها بأنه لم يعد يكبلها واجب ما ... « أى شبح للواجب تقيمينه فى وجه سعادتى ؟ »
- لقد مات بسببى .. وسببك !

وعبثاً ينصب المسكين نفسه مدافعاً عن قضية الهوى ، فإن حاسة الواجب - أو ما تعتبره الأرملة واجباً - لا تزال هى الغالبة على مشاعرها فهى تجيبه : « أعترف أن العاطفة قد تقودنى وراءها ، لكنها لن تستطيع أن تعمى تماماً .. وما من شىء يحول دون

إدراكى أنك قد خلقت حائراً لكل مؤهلات النبيل ، والشهامة ،
والنجاح فى بلوغ أهدافك لكنك طالما أحيت ، ولسوف تحب
مراراً أخرى .. أما أنا فما عدت قديرة على إسعادك وما عاد هناك
مفر من أن أراك تحب امرأة أخرى كما أحبتنى .. وإن كنت غير
واثقة من قدرتى على احتمال الصدمة ، وعلى عدم الشعور بالغيرة
الموجعة ! ،

ورغم ذلك يأبى دى نيمور أن يصدق أنها جادة ، وأنها ستقوى
على السير فى الشوط إلى آخره ! .. فيبذل أقصى ما فى وسعه كي
يقنعها بالعدول عن قرارها .. ويستمر فى محاولاته شهراً .. فشهوراً ..
فعاماً .. فأعواماً ! .. لكنه ييأس آخر الأمر ، ويتعاون الزمن والبعد
على تخفيف حدة لوعته ، وإطفاء نار هواه ..

أما هى ، فتتقضى بقية أعوامها على نمط واحد : نصف العام
فى الدير ، ونصفه الآخر فى بيتها - فى عزلة ، لعلها أشد وأقصى
من عزلة الدير ! - منشغلة بأعمال الخير الخالصة .. التى تقرب من
أعمال القديسين

وهكذا عاشت مدام دى كليف ، مثلاً أعلى للفضيلة والعفة ..
وهكذا ماتت مقبلة عليهما !

٤ - العفة . . . والسعادة !

● هذا هو الكتاب الذى أحدث ضجة كبرى عند ظهوره
والذى يعتبر إلى اليوم من أروع آيات فن القصة الطويلة .. والذى
حاول شاب من كتاب هذا العصر - هو « ريموند راديجيه » - أن
يقلده وينسج على منواله . فى قصة حديثة له أطلق عليها « مرقص
الكونت » ..

فأى جديد جاءت به « الأميرة دى كليف » ، كى تظفر بهذه
المكانة الخالدة ؟

أولاً بساطة البناء ، الجديرة بعظماء كتاب المسرح فى الأدب
الفرنسى .. فبضربة واحدة ، وضعت « مدام دى لافاييت » نموذجاً
للون أساسى من ألوان القصة الفرنسية الطويلة .. وأن من يطالع
قصة « أندريه جيد » العصرية التى أطلق عليها : « السيمفونية
الريفية » ، يلمس - بوضوح - التزامه ذات الأسس التى راعتها
« مدام دى لافاييت » فى بناء قصتها ، وهذه الأسس هى : الأسلوب
الطبيعى البسيط والاهتمام بتصوير « الشاعر » .. والتحليل الرقيق
المتحفظ والإيجاز الرصين فى القصة

بل إن « مدام دى لافاييت » كانت أيضاً أول من صورت فى
أدبها ما يصح أن يسمى بـ « مجتمع الفراغ » ! .. وهى أول من
وصفت الرقة المتناهية فى العواطف التى يمكن أن تنمو بين الرجال
والنساء من ذوى النفوس النبيلة . حين لا يكون ثمة شاغل لهم غير

الحب !... وقد عرفنا مجتمعات من هذا اللون في فرنسا - وبخاصة في باريس - خلال السنوات السابقة للحرب - وسوف نرى حين نتحدث عن « مارسيل بروست » في الفصل الخاص به من هذا الكتاب ، كم ستكون المقارنة شائقة بين وصفه لعواطف العاطلين ذوى الفراغ . وبين وصف مدام دي لا فاييت لهذه العواطف !

ففي تصوير الأخيرة لشخصيتي مسيو دي نيمور ، ومسيو دي كليف ، نراها قد رسمت صورة للرجل الذى يقبل أن يكون عبداً للتقاليد التى فرضها على نفسه !.. الرجل المترمت الذى قد يثير ابتسام الأجيال الساخرة . وإن لم يخل تزمته من « عظمة » ! فالمرء قد يجد قديسين أو فلاسفة أو ثواراً أكثر منه عنفاً فى تزمته ، لكن الذى الذى لا شك فيه أن مجتمعاً يكون مؤلفاً من مثل هذا الرجل . إنما يمثل انتصار الإنسانية فى البشرية على الحيوانية !

ولكن ، ترى هل يمكن القول بأن المبادئ الخلقية التى التزمها أبطال « الأميرة دي كليف » قد جلبت لهم السعادة ؟ كلا ، ألبتة.. فنحن قد رأينا مسيو كليف يموت حزناً ، ومامد دي كليف ترفض الرجل الذى أحبته - بعد أن تسببت فى وفاة الرجل الذى قدرته ! - ثم تقضى بقية حياتها فريسة لثيكيت الضمير . أما مسيو دي نيمور فقد خاب أمله . ولم يظفر قط بالمرأة التى أحبها . وهكذا كان الفشل الكامل نصيب أشخاص القصة الثلاثة ! فهل نخرج من ذلك بأن نبل الخلق كان خطأ من جانبهم ؟ أو ما كان الضرر

٤٠ . لنحب سبعة وجوه (الحب المتطوى على القروسة)

يكون أخف ، لو لم تصارح مدام دى كليف زوجها بحقيقة عواطفها ، أو حتى لو استسلمت لحبها الحرام .. للآخر ؟

يقول « أنا تول فرانس » فى مقدمة كتبها لإحدى طبعات قصة مدام دى كليف : إنه سأل امرأة كان يعجب برجاحة عقلها وشجاعتها : « ألا تعتقدين أن مدام دى كليف قد جعلت للفضيلة ثمناً باهظاً ، حين رأت أن الثمن الذى دفعته فيها - وهو موت الزوج .. ويأس المحب ! - لم يكن غالياً ؟ » !

فكان جواب تلك المرأة ما يلى : « أن الأميرة دى كليف تتصرف بوحى اعتبارات إنسانية محضة لا يخالطها أى أثر لمثل أعلى .. ذلك أن الحكمة والتعقل - وهما فضيلتان وقتيتان - توجهان حياتها ، وتسيطران على مشاعرها .. بل إن ما هو أكثر من الحكمة ، وهو اعترازاها بمكاتها الاجتماعية ، ينفذ إلى أعماقها ويحميها .. إنها تعبد المظاهر الخارجية إلى أقصى حد ، وتخفى الكثير من أحزانها الخفية خلف قناع الكبرياء والترفع الجميل ! .. وفى وسعى أن أتصور أن الحياة لأبد كانت فى نظر هذه المرأة الفاتنة - التى كانت نفسها ومعنويتها أقل تعقداً من نفسياتنا فى هذه الأيام - أشبه بقاعة استقبال فاخرة متلاثة بالأنوار ، يتعين عليها أن تعبرها مرفوعة الرأس ، مزهوة بنفسها ، ثم تمضى تاركة الحاضرين يسلقونها بالسكتهم الحادة ! .. وأحياناً يلزم المرء ، كى يتسم وسط مأدبة عشاء ، نصيب من الشجاعة و « البطولة » يفوق ما يلزمه فى ميدان

القتال !.. وقد كانت مدام دى كليف تملك هذا النوع من الشجاعة ، تملكه إلى حد إنكار الذات ، بل إلى حد الاستشهاد !.. ونحن نراها مجردة من كل ضعف ، لكنها مجردة أيضاً من كل شفقة .. فهي تدع رجلين ينحدران إلى مهاوى اليأس ويموتان ، مع أنها تعشق واحداً منهما على الأقل !.. وهى بمنجى من توبيخ الضمير ، لأنها ظلت تلتزم مسلكاً لا غبار عليه ، ولم تسمع لشيء بأن يחדش خلقها الرائع .. إنها نموذج لما تستطيع التربية الاجتماعية الصارمة والحياة المترمة أن تصنعه .. كما أنها مثال شامخ - وإن يكن مخيباً للآمال ، محطماً للقلوب - لما تفعله الفضيلة والأخلاق الرفيعة بسمادة الرجال !.. والمرء أمام هذه النفس العفيفة التى لا ترحم ، لا يملك إلا أن يسأل نفسه : أليس منبع هذه الفضيلة هو الكبرياء ، التى عرّتها عن كل شيء .. حتى عن الضرر الذى أحدثته ؟!

احتمالان .. لا ثالث لهما !

● والواقع أن هناك تعليلين محتملين لمسلك مدام دى كليف : إما أن عواطفها الحسية ضعيفة غير ملحة .. أو أنها تملك من قوة الخلق ما يكفى لقمع شهواتها العنيفة أى أنها إذ تنازعها الرغبة والواجب ، اختارت الواجب ! وإذا استطعنا إنكار « حكمة » هذا التسليم المطلق لحكم الواجب ، فليس يسعنا أن ننكر جلاله وروعته !

ومهما يكن من شيء . ومهما صادفنا في بقية قصص هذا الكتاب أو في غيرها من القصص ، شخصيات أخرى قريبة إلى شخصيات هذه القصة في النبل والعفة إلا أننا لن نجد ما يعادلها سمواً ، وتواضعاً . وجلالاً !

ولن نكف عن أن نذكر بالاحترام والعطف تلك الليالى المحمومة في باريس القرن السابع عشر . حيث عاشت - بقرب حداثق الاوكسمبرج - روحان اجتمع فيهما العنف والعفة .. والبطولة والرقّة !



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق اندريه موروا

٢ - الحب المنطوى على الخيال

(جوليا « هيلويز الجديدة » لجان جاك روسو

الحب «الرومانتيكى»

● فى الفصل السابق حدثنا «موروا» عن الوجه الأول من وجوه الحب السبعة ، وهو الحب المنظوى على القروسية الحب الذى كان طابع القرن السابع عشر.. وساق «موروا» كثال على هذا النوع من الحب ، قصة «الأميرة دى كليف» - لمدام دى لافاييت - فليخصها لنا تلخيصاً شائقاً ، وعقب عليها بالتساؤل عن مدى التلازم أو التناقض بين العفة.. والسعادة ! واليوم يحدثنا المؤلف عن الوجه الثانى من وجوه الحب السبعة ، وهو الحب الرومانتيكى ، المنظوى على الخيال ويسوق لنا مثالا عليه ، قصة جان جاك ررسو الخالدة : «جوليا» أو «هيلويز الجديدة» - وقد أطلق عليها الشطر الأول من الاسم باعتبارها اسم بطلتها والشطر الثانى ، تشبيهاً لها بالقصة الواقعية لغرام الفيلسوف والعالم الفرنسى «بيير أبيلار» عام (١٠٧٩ - ١١٤٢) بتلميذته العذبة «هيلويز» عام (١١٠١ - ١١٦٤) فتعال معى نصحب أندريه مورو فى رحلته الممتعة هذه ، فنقلب معه صفحات هذه القصة الكلاسيكية الخالدة .. ونعيش ساعات فى جو غرام «جوليا» ومعلمها الشاب «سان برىو» .. بل نعيش فى جو غراميات «روسو» الواقعية ، وجو المجتمع الفرنسى كله فى عصر روسو إلخ .

● عندما صدر كتاب « جوليا » ، حمله بائع كتب متجول إلى الأميرة « دى تالمون » ، في ليلة كان يقام فيها مرقص كبير في دار الأوبرا . فلما تناولت الأميرة العشاء وارتدت ثياب السهرة ، جلست تنصفح الكتاب في انتظار موعد الحفلة . حتى أقبلت عليها وصيقتها قبيل منتصف الليل تعلن إليها أن مركبتها قد أعدت .. لكنها استمرت تقرأ .. حتى جاءها الخدم ينهونها إلى أن الساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، فقالت الأميرة « لا داعي للعجلة » . واستمرت في القراءة ! .. وبعد فترة أخرى توقفت ساعة الأميرة ، فدفقت الجرس كي تسأل عن الوقت ، فلما قيل لها إنه الرابعة صباحاً قالت في غير أسف : « أعتقد أن أوان الذهاب إلى الأوبرا قد فات . فليرجع الخوذي العربية إلى حظيرتها » ثم خلعت ثياب السهرة ، وقضت بقية الليل تقرأ .. القصة !

ولم تكن الأميرة وحدها التي شغفت بالقصة ، بل إن جميع نساء ذلك العصر ، وأكثر رجاله ، قرأوا « جوليا » بنفس الحماسة والانكباب . فقد كان نجاح الكتاب هائلاً - رغم مهاجمة النقاد له ، ومهم فولتير ! - ويمكن القول في غير مغالاة : إن « روسو » ، أستاذ الرقة والأحلام العاطفية . قد علم الحب - بواسطة هذا الكتاب - لنابليون ، وجيته . وستندال . وجميع رجال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ! بل لقد أجمع النقاد على أن روسو كان أول كاتب لفت الأذهان إلى الصلة بين العواطف

والمشاعر وبين جمال الطبيعة ، فكذب أحدهم يقول « هل كانت توجد أشجار وحشائش قبل روسو ؟ .. يكاد المرء يعتقد أنها لم تكن ! » .. وإذا كان من الطبيعي والشائع اليوم أن يقرن المرء مولد عاطفة ، بين رجل وامرأة ، بتزهوة ليلية في ضوء القمر .. أو يقرن انطفاء حب بتزهوة في ساعة الغروب ، في يوم من أيام الخريف ، وقد تساقطت عن الأشجار أوراقها الجافة وتكسرت تحت الأقدام الخ .. فإن هذا التجاوب بين شاعرية الطبيعة ، وشاعرية القلب ، لم يصفه كاتب قبل روسو !

والخلاصة أن قصة « جوليا » قد بدلت أساليب الحب لنصف قرن من الزمان على الأقل ! .. فقد رأينا في قصة « مدام دي كليف » كيف كان الحب في القرن السابع عشر يقترب بالشرف .. أما في القرن التالي له فقد صار الناس يسخرون من هذا اللون من ألوان الحب ، واستبدلوه بالحب الذي لا يزيد عن كونه متعة ! وبعد أن كان العشاق يفخرون بكمائن عواطفهم ، صاروا يتفاخرون بسردهم غرامياتهم في حرية وفي جرأة ! ورغم أن الفتيات لم ينقطعن في ذلك القرن عن قراءة « مدام دي كليف » وغيرها من القصص التي تصور حب القرن السابق ، فإنهن كن يلقين هذه القصص جانباً إذا ما بلغت سن العشرين ، ويفقدن كل اهتمام بذلك الطراز العتيق من الحب .. تمشياً مع روح العصر والمجتمع الذي يعشن فيه !

وهكذا تسلك نساء القرن الثامن عشر مسلك الرجال ،

ويقتبس أخلاقهم ومبادئهم لكن تهتكهن هذا ينتج ثمرة الطبيعة ،
وهى الشعور بالسأم والملل من الحياة .. فإنه لا شيء ، يملأ فراغ
الإنسان ويشغل أوقاته مثل الحب الصادق المصحوب بالشكوك ،
الذى يجعل العاشق يفضى أياماً بأكملها بفكر ، ويحلل ، ويفسر
ابتسامة من المحبوب ، أو تورّد خد ، أو نظرة عين ، بحيث يخلق
منها فى كل لحظة أسباباً جديدة للأمل ، ومبررات جديدة للخوف
أو اليأس !

تلك هى الظروف التى ظهرت فيها قصة « جوليا » . فلقبت
نجاحاً منقطع النظير فى عهود الفساد والانحلال الخلقى يكون
امتداح الفضيلة بدعة تثير فضول الناس وإقبالهم ! وهكذا وجد
أفراد المجتمع الفرنسى فى سنة ١٧٦٠ م فى جان جاك روسو وكتابه
ضالته المنشودة : فقد كان يمثل فى نظرهم نفس العناصر التى
تنقصهم فى حياتهم .. وهى الفضيلة ، والعاطفة ، وبساطة الحياة
الفطرية ..

المؤلف

- كان أبوه « ساعاتى » فى مدينة (جنيف) ، وأمه ابنة قيس ..
وقد فقدها وهو طفل ، واضطر أبوه إلى الفرار من جنيف بسبب
نزاع مع السلطة الحاكمة وحين كبر الصبي تنقل بين أعمال
مختلفة ، فاشتغل فترة عند أحد الصناع ، وفترة أخرى فى مكتب ..

ثم هرب بلوره من أبيه ، وبدأ مراهمته شريداً ! .. وبعد حين تبنته امرأة تدعى « مدام دى فارين » ، وتولت تعليمه .. ثم انتهى بها الأمر إلى أن صارت خليلته ، بغير أن تحبه ! مثلها فى ذلك مثل « جورج صاند » ، التى صارت خليله الموسيقى شوبان بدافع من الشفقة والشعور بالواجب !

وبعد أن ترك روسو مدام دى فارين ، تقلب فى أكثر من عمل بين سكرتير لكاهن يونانى ، ونقاش ، وموسيقى ، وتاجر متجول ... إلخ .. وخلال ذلك كله ظل دائماً نفس الفنان الحالم الذى يستجيب لسحر الطبيعة ومباهجها العاطرة ، فيتأمل صفحة السماء فى جذل ، وينظر إلى خضرة الحقول فى نشوة ، ويصفى إلى خريف الماء فى الجدول مأخوذاً فلما جاء عام ١٧٤١ ، شذر حاله إلى العاصمة : باريس !

فما الذى أغراه بأن يهجر أشجاره ، وأطياره ، وأنهاره ؟ أغراه المجد ! .. المجد الذى قرأ عنه فى « بلوتارك » وحلم به .. فضى يسعى إليه عن طريق الموسيقى ! كان قد وضع ألحان أوبرا كاملة . وابتدع طريقة جديدة لكتابة النوتة الموسيقية .. لكن المجد كان ينتظره من باب آخر ، وواتاه فى سهولة ويسر ! لم يحوجه الأمر إلى أكثر من بضعة خطابات توصية فتحت له صالون مدام « دوبان » الأدبى . الذى كان قبلة أهل الفن والأدب ، فدخل فى زميرتهم .. وحين أعلنت أكاديمية « ديجون » عن مسابقة وجائزة

٥٠ . لنحب سبعة وجوه الحب المنطوى على الخيال)

كبيرة لمن يكتب أحسن رسالة في العلوم والفنون ، كتب رسالته المشهورة التي هاجم فيها الحضارة ونادى بالعودة إلى أحضان الطبيعة ، وبنظريته الجديدة التي مؤداها إن مبادئ الفضيلة محفورة في كل قلب ، بحيث يكفي أن ينظر الإنسان إلى أعماق نفسه ويصغى إلى صوت ضميره . في سكون الرغبات والعواطف . كى يراها بوضوح ! وفي سنة ١٧٥٢ مثلت روايته « عراف القرية » أمام الملك ، فظفرت بنجاح هائل . ووقف المؤلف يتلقى التهاني وقد أطلق لحيته وبدأ في هيئة الرجل المتوحش . فأثارت غرابة شخصيته فضول الناس حتى اشتاقت « فرساي » بأسرها إلى التعرف إليه !

باريس تمجد « روسو » !

● ولكن المجتمع الذي خف إلى الترحيب بروسو فجأة وبسهولة عجيبة . لم يظفر بإعجابه . فراح ينتقده في كتاباته بصراحة وجرأة . ويسلق بألسنة حداد ما يسود صالوناته من رياء وزيف ، وسفسطة . ومباذل ... وكان أفراد تلك المجتمعات - وخاصة النساء منهم - يشعرون بنقائصهم ، فأحسوا لذة مريرة في مطالعة وسماع النقد الموجه إليهم ! وكانوا على استعداد لأن يجعلوا من أى شخص يواجههم بالحقائق الموجهة بطلا عظيماً ! .. وقد ظهر روسو في الوقت المناسب . فاتخذوه بطلهم المفضل ، وصار إعجابهم به « موضحة » العصر ! .. لكن « الموضوعات » والبدع لا تطول عادة أو تدوم على حال ، بل تتبدل بسرعة .. وهكذا سرعان ما سئم

الباريسيون روسو ، بنفس السرعة التي هملوا بها له وكبروا ! ..
ولكن إذا تأثر من ذلك روسو الإنسان وتألم ، فإن أدب روسو
قدر له أن يغزو إمبراطورية بأسرها ، ويبدل أساليب الشعور
والعواطف لقرن كامل من الزمان !

« الصومعة ! »

● وكانت النتيجة الأولى لكفران باريس بروسو أنه كره العاصمة
وأهلها ، وعاوده الحنين إلى الارتقاء بين أحضان الطبيعة في الريف ..
وتهيأت له أسباب ذلك حين عرضت عليه « مدام ديبيناى »
في سنة ١٧٥٦ أن يعيش في بيتها الريفى المسمى « الصومعة » ، الكائن
في حدائق « مونت مورينسى » . فقبل مرحباً ، وحل بالصومعة
ذات يوم ومعه خليلته « نيريز لوفاسور » - التي كانت تعمل في
حانة عندما تعرف بها ، فأعجبه بساطتها وأنوثتها . ورقتها ،
وعاهدها على أن لا يهجرها قط . لكنه صارحها في الوقت نفسه
بأنه لن يتزوجها !

ووجد فيها رفيقة للجسد والقلب . دون العقل ! فلما سافر
إلى الريف أخذها معه . وهناك ثمل روسو بخمرة الهواء الطلق
الجميل . وخضرة الحقول . وتغريد البلب والكروان . فبدأ يعلم ..
ونبتت في ذهنه البذور الأولى لقصة جوليا . جمع في ذاكرته كل
النساء اللواتى أثن مشاعره . منذ عرف المرأة في شبابه الباكر حتى
الآن . بادئاً بفتاتين من عذارى سويسرا الفاتنات خرج معهما في

نزهة بريئة وهو ما يزال حدثاً ثم مدام دى فارين ، المرأة الفاضلة التى تبته فى صباه ، فانزلت معه إلى الخطيئة عطفاً عليه !.. ثم « مدام دى لورناج » التى تغلبت على خجله وحيائه الفطرى بأن بدأت هى بمغازلته !.. وكفى ، فقد كانت تلك هى كل غرامياته تقريباً من سن الخامسة عشرة حتى سن الخامسة والأربعين !.. ذلك أنه كان يترفع عن طبقة عاملات المحلات التجارية ، والحائكات والخادعات وفى هذا يقول فى اعترافاته « كنت دائماً أنشد نساء الأسر العريقة ، لا بدافع الزهو والغرور ، أو التأثر بجاذبية طبقتهن الرفيعة فى ذاتها ، وإنما إرضاء لميلى الشديد إلى المرأة ذات البشرة الناعمة - التى لم يفسدها العمل اليدوى - والثوب الأنيق ، والشعر المصفف ، والحركات المهدبة .. بحيث كنت أفضل المرأة التى تتحلّى بهذه الشروط ، ولو كانت أقل جمالاً من الحسناء التى تنقصها هذه الأمور ! والواقع أنى أعتبر هذا التفضيل مدعاة للسخرية ، لكن قلبى يقودنى إليه بالرغم منى !

منشأ فكرة القصة

● قلنا إن روسو جمع فى ذاكرته كل من عرف من النساء ، كما يجمع السلطان حريمه حوله ، فغلى دم الشباب فى عروقه من جديد ، لا حينئذ إلى الشباب والحب ، وإنما حينئذ إلى الفن أراد أن يصوغ من تأملاته وأحلامه عملاً فنياً خالداً .. ولندعه يصف مراحل تفكيره فى قصة « جوليا » : « تصورت الحب والصدقة

— معبودى قلبى — فى أبهى صورهما ، فى هيئة امرأتين صديقتين ..
 ووجدت نفسى أريق عليهما كل جاذبية الجنس الذى طالما عبدته
 وعشقتة ، وكل صغره ، وزينته ! .. ووهبتهما طباعاً وأخلاقاً مختلفة ،
 ومظهراً مختلفاً : جعلت إحداهما سمراء ، والثانية شقراء ! إحداهما
 عشيقه للرجل ، والثانية صديقه له وأما الرجل نفسه — بطل
 القصة — فقد جعلته ظريفاً ، وسيماً ، شاباً ، له نفس الفضائل
 والردائل التى أعرفها فى نفسى ! .. وإذ انتهت من تهيئة أشخاص
 القصة ، بدأت أبحث لها عن مكان مناسب حتى وقع اختيارى
 على بحيرة جنيف ، التى ولدت على شاطئها ، فوضعت الجميلتين
 اللتين خلقتهما ، فى ضاحية « فينى » الساحرة ... » .

((هيلوين الجديدة !))

● فإذا بدأت القصة ، فقد اختار النبيل السويسرى ميبو
 « ديتانج » لابنته « جوليا » معلماً يدعى « سان بربو » .. فوقع المعلم
 فى هوى تلميذته الجميلة ، وآثر أن يفانحها بغرامه « كتابة » ! ..
 فأرسل إليها خطاباً ، لا يطلب إليها فيه شيئاً ، وإنما حبه أن يقول
 لها إن جمالها قد أعشى عينيه : « ولم لا أفرض أن قلبينا
 ينبضان بعاطفة واحدة ، كما ينحيل إلى ؟ .. إنه ليحدث أحياناً أن
 نلتقى أعيننا فجأة ، فتفصح التأوهات مشاعرنا ، وتنهمر من مآقينا
 اللامع ! أواه ، يا حبيبتى جوليا ، لو يكون اتحاد روحينا إلهاماً

إلهياً ! .. لو تكون السماء قد أعدت كليتنا للآخر دون أن يحوجنا الأمر إلى الفرار ؟ !

لكنه لم يكدر رسل هذا الخطاب ، حتى ألحق به آخر .. يقول فيه : « .. مائة مرة في اليوم أحس بإغراء يكاد يدفعني إلى أن أرني عند قدميك ، وأغسلهما بدموعي ! .. ولكن رهبة مفاجئة تشل عزمي ، فترتجف ركبتي بحيث لا تقويان على الانحناء ، وتموت الكلمات على شفتي ! .. هل تريدني أن أذهب ؟ إذن فساذهب .. »

.. وتخيفها الفكرة ، فتضطر إلى أن تكتب إليه .. لأول مرة .
« لا تكن عنيداً في ظنك أن سفرك ضرورة ملحة .. فإن القلب الذي يدين بالفضيلة يستطيع أن يتغلب على حماقته . أو يصمت ! .. على أي حال ، أنت تستطيع أن تبقى .. »

فيجيئها « لقد لذت بالصمت زمناً طويلاً .. حتى اضطررتي بروذك وعدم مبالاةك إلى أن أتكلم آخر الأمر .. والآن ، يجب أن أذهب ! »

فتكتب إليه خطابها الثاني « كلا يا سيدي إن الرجل الحق - كما تعتبر نفسك - لا يفر أو يهرب .. وإنما قد يفعل أكثر من ذلك ! »

ويخطيء فهم قصدها ، فيرد على خطابها « إنك تدعينني إلى الانتحار ! حسناً ، سوف أقتل نفسي . فهذا أقل ألماً من الفرار بعيداً عنك ! »

ونجيبه في خطابها الثالث : « يا لحاجة الشباب إذا كانت حياتي غالية عندك ، فلا تمس بسوء حياتك ! »

ثم تتبعه مباشرة بخطاب رابع : « هل يجب أن أعترف لك في النهاية بسر الرهيب ، الذي لم أنجح في إخفائه ؟ لقد طالما أقسمت أن لا يرح هذا السر قلبي إلا مع نفسي الأخير لكن تهديبك يتزعه الآن مني أحسبك فهمته .. يا لضبعة شرفي ! »

الشرف ! .. نعم . فإنهما رغم غرامهما المتبادل الجارف ، يحرصان كلاهما على أن يلتزما العفة قبل كل شيء آخر .. فترجو جوليا من « سان بريو » ألا يتركها ، لكنها تطالبه في الوقت نفسه بأن .. يحترمها ! .. فتناشده : « كن فاضلاً أو أحتقرك واحترمني أو أتركك ! »

لكن جوليا ، رغم حرصها على أن يحترمها ! تعرض حبيبها التعس لألوان قاسية من الإغراء والتجارب فهي تضرب له موعداً في الغابة ، حيث تنتظره مع ابنة عمها كلارا وفيما يلي مشهد الغابة كما يصفه هو في خطاب إليها « .. وحين دخلت الغابة أدهشى أن أرى ابنة عمك تقترب مني ، ثم تسألني في مذلة مصطنعة أن أمنحها قبلة فأذعنت لطلبها ، دون أن أفهم اللغز الغامض ! ورغم جاذبيتها التي تعرف فيها ، فإنني لم أحصل من قبل على برهان أقوى إقناعاً بانعدام لذة المشاعر التي لا تنبع من القلب ،

من البرهان الذى حصلت عليه لحظتئذ ، حين قبلتها ! .. ولكن
 ما كان أشد اضطرابى ونشوى ، بعد لحظة ، حين شعرت
 — ويداى ترتجفان رجفة لطيفة — بشفتيك الورديتين ، شفتى حبيبتى
 جوليا ، تلتصقان بشفتى وأنا بين ذراعيها ! .. وبأسرع من
 البرق الخاطف سرت فى روحى نار مفاجئة ، النار التى تسرى مع
 تنهداتنا من شفاها الملتببة .. وغاص قلبي فى جوفى وقد تملكته غبطة
 لا تحتمل ! .. وبغته رأيت لونك يتغير ، وعينيك تغمضان ، ثم
 استندت على ابنة عمك ، وسقطت مغشياً عليك ! .. وعندئذ أطفأ
 الخوف والقلق كل نشوى ، واختفت سعادتى كما تختفى الظلال ..
 ولست أدري شيئاً مما حدث منذ تلك اللحظة المميته . كما أن الأثر
 الذى خلفته فى قلبى لن يمحي قط ! .. ترى هل قصدت بقبلتك
 أن تمنحني فضلاً ومنة ! .. كلا ، بل عذاباً مروعاً ، فاحتفظى
 بقبلاتك ! لست أستطيع أن أحتملها .. إنها تفيض مرارة ،
 وتتغلغل ، بل تلذع ، بل تحرق حتى النخاع .. إنها كفييلة بأن
 تقودنى إلى الجنون ! »

ولكى يسترد « سان برىو » هدوءه وسكينته نفسه ، يضطر إلى
 الارتحال وخلال فترة غيابه ، يدخل والد جوليا فى روعها أنه
 لن يسمع لها يوماً بالزواج من رجل وضع الأصل .. ورغم ذلك
 فإن جوليا حين يعود حبيبها ، تصير خليلته ! .. ثم يمتلكها وخز
 الضمير على الفور ، فتحدث نفسها : « ليته يقر منى إلى الأبد ،

ويحرم نفسه من تلك اللذة الوحشية ، لذة كونه شاهد عيان لأحزاني ..
ولكن لماذا أهذى هكذا ؟ إنه ليس المألوم أنا وحدي المذنب
أنا وحدي التي نسجت خيوط مصيرى التعس .. ولست أستطيع
أن ألوم غير نفسى ، من أجل ما حدث !

ويحاول صديق لسان برىو يدعى « إدوار ميلور » أن يقنع والد
جوليا بالموافقة على زواجها من حبيبها ، ولكن دون جدوى ! ..
بل إن الوالد يصر على أن يرحل الفتى فوراً ويفادر سويسرا ،
بأمرها .. فيضطر التعس إلى الذهاب إلى باريس .. ومن هناك
يوصل مراسلة حبيبته ! .. لكن أمها « تضبط » رسائلهما ، فتكتب
إليه جوليا ملئحة : « لقد ضاع كل شيء ! واكتشف كل شيء !
لم أجد خطاباتك فى المكان الذى اعتدت أن أخبئها فيه - والذى
كانت فيه حتى مساء أمس ! - لا بد أنها نقلت منه اليوم فقط .
ولا ريب أن أمى هى التى عثرت عليها فلو كان أبى هو الذى
اكتشفها لفعل أكثر من ذلك .. لقتلنى ! »

وعند هذا الحد ختم روسو قصته فى البداية ، معتبراً أنها قد
انتهت بانفصال الحبيبين إلى غير لقاء ! .. وحين قرأها على خليلته
« تيريز » . وأمها مدام لوفاسور ، بكى المرأتان تأثراً وإعجاباً ..
ولكن الأقدار كانت تدبر للقصّة نهاية أخرى ، ولؤلؤها مغامرة
غرامية جديدة ، فتحت أمام « جوليا » آفاقاً أخرى .. (مما يعتبر

مثلاً حياً من أمثلة الصلة العجيبة بين الحياة والقصص بين الحقيقة والخيال !

مدام دوديتو !

● ففى تلك الفترة ، كانت إحدى قريبات مدام ديبيناى - صاحبة « الصومعة » ومضيفة روسو - وتدعى « مدام دوديتو » ، تضرع لزوجها فى قلبها ، (مثل أكثر زوجات القرن الثامن عشر) ، تفوراً خفياً .. انتهى بها إلى أن تتخذ لنفسها عشيقاً ، هو الضابط الشاعر « سان لامبير » ويحدثنا روسو فى اعترافاته : أن مدام دوديتو كانت وقتئذ فى الثلاثين ، لكنها لم تكن جميلة أو ممتازة بشئ ، فيما عدا ثروتها من الشعر الأسود المتموج الذى كان يصل إلى ركبتيها .. وفيما عدا روحها الخفيفة ، ولطف معشرها

لكن الظروف نشاء أن تقطن مدام دوديتو قرب الصومعة . وأن تدخل على روسو يوماً أثناء عاصفة ممطرة وقد ابتلت ثيابها بالماء والوحل ، فتعيرها خليلته « تيريز » بعض الثياب .. وفى مرة أخرى تقبل على الصومعة على ظهر جواد وقد ارتدت زى رجل .. ثم تتكرر زياراتها للكاتب العاطفى ، لا بغية لإقاعه فى هواها ، وإنما تلبية لتوصية خليلها « سان لامبير » الذى كان صديقاً لروسو فأوصاها قبل سفره المؤقت أن تؤنس وحده « الأديب المنظوى على نفسه » بزياراتها من حين لآخر !

وتعلم المرأة أن روسو يعرف بأمر صلتها مع سان لامبير ،
 فلا ترى بأساً في أن تحدثه عن الحب ، وتناقشه فيه غافلة عن أن
 المسكين قد وقع فعلاً في هواها ، وانتقل الحب من حديثه إلى
 قلبه !.. أو كما يقول في اعترافاته : « كنت قد ثملت بحب لا طائل
 وراءه .. فصرت أرى في مدام دوديتو بطة قصتي جوليا !.. وبعد
 حين صرت لا أرى غير مدام دوديتو ! »

ورغم تدله روسو في حب مدام دوديتو ، فقد حرص على
 ألا يخون صديقه - وخليلها - سان لامبير قانعاً بأن يكون لها ،
 مجرد.. صديق !.. وكانت هي مثله ، تحب نزهة المشي على الأقدام
 في الغابات ذات المناظر الطبيعية الساحرة وذات ليلة ، خرجا
 للنزهة بعد أن تناولا العشاء معاً ، في ضوء القمر وخليهما جمال
 الكون ، وأشعل في قلب روسو هواه العظيم ، فارتدى عند قدمي
 « محبوبته » ، وأغرق ركبته بعبراته ، وأسأل عبراتها هي ،
 برغمها !.. فذكرته بصديقه « سان لامبير » ، وإذ ذاك تهتد
 وصمت واكتفى بأن يقبلها « وأى قبلات !.. كانت قد

انقضت عليها ستة أشهر وهي بعيدة عن عشيقها وعن زوجها
 وانقضت على أنا ثلاثة أشهر كنت فيها أراها كل يوم ، أنا وهي
 وحدنا .. والحب ثالثنا !.. وفي تلك الليلة كنا قد نعشنا معاً .
 وجلسنا في الغابة وحدنا ، في ضوء القمر وبعد خلوة استمرت
 ساعتين . وكانت من أرق اللحوات وأكثرها إرهافاً للحس ، خرجت

٦٠ نلحب سبعة وجوء (الحب المنطوى على الخيال)

هى فى ظلام الليل من الغابة ، ومن بين ذراعى ، « صديقها » ، سليمة طاهرة الجسم والقلب ، كما دخلت ! .. أواه أيها القارئ .. زن جميع هذه الاعتبارات واحكم .. فلن أضيف أنا شيئاً ! ،

شيطان الغيرة !

● ورغم سيطرة الطرفين على عواطفهما على هذا النحو ، فقد دب فى قلب صاحبة الصومعة ديبب الغيرة من قريبتها مدام دوديتو ، وحين استلم كل من « سان لامبير » عشيق المرأة ، و « تيريز » - عشيقة روسو - خطاباً يفضح لهما تلك الصلة ، فصب كلاهما جام غضبه على روسو . اتهم هذا مضيفته الغيورة بإرسال الخطاب ، وأغلظ لها فى القول ! ومنذ ذلك اليوم تعذر عليه أن يبقى فى الصومعة التى تملكها ، جاراً لحبيته مدام دوديتو التى تقطن بيتاً بالقرب منها ! .. وبانتقاله من هناك ، انقطعت صلة « الرؤية » بينه وبين محبوبته ، فاستعاض عنها بصلة المراسلة . صار يرسل لها خطابات حب من نار ، ويحلم بأن ينتقل ليعيش معها ومع خليلها فى بيت واحد ! .. ولم يمانع « لامبير » فى ذلك ، فكتب إليه خطاباً رقيقاً يقول فيه : « إن شعورها نحوك لم يتغير ، فهى تحبك وتقدرك ، ولئن كنت أنا الذى قربت بينكما ، فإنى لست نادماً على ذلك .. بل إن قلبى لمشتاق إلى أن أعيش مع المرأة التى أحبها ، والصديق الذى أقدره . فى بيت واحد ! .. ولقد طالما تمنيت أن أقضى حياتى بينها وبينك ! »

وكانت هذه الفكرة هي التي أوحى إلى روسو بأن يضيف إلى قصة « جوليا » فصولاً جديدة . بعد أن ختمها على النحو الذي أسلفنا .. وهكذا نرى « سان بريو » يحل جوليا من عهدها القديم له بأن لا تصير زوجة لسواه .. ومن ثم تقبل ، إطاعة لأبيها ، أن تتزوج من « ميو دي فالمار » ، وهو رجل وقور ، بارد الطباع .. يكبرها بسنوات !

بينما يقوم « سان بريو » بسياحة طويلة حول العالم . وحين يعود - بعد ست سنوات - يستقبله الزوجان في بيتها السعيد ، الذي تأوى إليه الفضيلة ويجد سان بريو صعوبة في الانفراد بجوليا ، إلى أن يتم له ذلك . لكنها لا تكاد تشرع في تبرير زواجها وموقفها ، حتى يدخل زوجها الغرفة ! .. غير أنها تستمر في كلامها كما لو لم يكن موجوداً .. وحين يلحظ الزوج دهشة الضيف من ذلك . يقول له وهو يتنسم « ها أنت ترى مثالا من الإخلاص ، إن تكن عفيفاً فلتنقل صورة منه . مما يجري هنا ! .. إنه الطلب الوحيد الذي أطلبه منك ، والدرس الذي أعلمك إياه ! .. فإن الخطوة الأولى نحو الرذيلة ، هي إخفاء التصرفات البريئة في ذاتها ! .. وليكن شعارك دائماً . أن لا تقول أو تفعل شيئاً تجد غضاضة في أن يسمعه الناس جميعاً أو يروه » !

ويعجب سان بريو بما يلحظه من حكمة « جوليا » و« فولمار » .

في كل تصرفاتهما ثم يخرج مع حبيبته السابقة للترهة في قارب ،
فتذكرهما خلوتهما الشاعرية بالماضي !

« وأيقظ صوت المجذافين الرتيب أحلامي القديمة وقبضت
صدرى زفرقة العصفير ، التي أعادت إلى ذاكرتي مباهج الماضي
السعيد .. وتزايدت الكتابة الجاثمة على قلبي بالتدريج فإن السماء
الصفاء ، وانعكاس أشعة القمر اللطيفة على الماء ، وزبد الأمواج
الفضي المتراقص أمامنا بل ووجود الحبيبة ذاتها إلى جوارى
لم يستطع كله أن يذود عن ذهني ألف خاطر مرير وخطر ا »

وكل من قرأ قصيدة « لامرئين » المشهورة (البحيرة)
وكتاني « مذكرات من وراء القبر » لشاتوبريان . و « أشجان
أوليب » لفكتور هيجو . توقف فيه عبارات « روسو » السابقة
ذكريات صفحات مماثلة رائعة من أدب هؤلاء الثلاثة بل إن
العبارات المذكورة قد نزلت من نفوس قراء القرن الثامن عشر
منزلة رفيعة . باعتبارها نموذجاً للإخلاص ، والحرارة ، والصدق
في التصوير والتعبير ..

لكن جوليا لا تلبث أن ترقد على فراش الموت وفيما هي
تختصر ، تنصح « سان بريو » بأن يتزوج من ابنة عمها كلارا ..
لكن هذه ترفض فيعيش الاثنان يجتران ذكرى حبيبينهما جوليا ،
ويسهران على تربية أطفالها !



وفيما هي تحتضر ، تنصح ا سان بربو ، بأن يتزوج
من ابنة عمها كلارا ..

الشرف ... أقوى من العفة !

● ورغم أن هذا الجزء الختامى من القصة كان أقل نجاحاً من الأجزاء التى سبقته ، فإن الحقيقة التى لا مرأى فيها أن « هيلويز الجديدة » كانت وما تزال أصدق قصص ذلك العصر تعبيراً عن روحه وطابعه ، بدليل أنها أثرت تأثيراً هائلاً فى جيل بأسره من الأفراد !

بقى أن نقاسم : فم تختلف عواطف الحب التى صورها روسو فى « هيلويز الجديدة » ، عن تلك التى صورتها مدام دى لافاييت فى « مدام دى كليف » ؟

الجواب إن الحس المرهف قد امتد نطاقه إلى عدد أكبر من الأفراد ، فلم يعد وقفاً على « الأبطال » ، وإنما صار فى متناول الجميع !.. فأشخاص قصة روسو ليسوا أبطالاً معصومين ، بل هم أقرب إلى « البشر » من أشخاص قصة مدام دى لافاييت فأنت ترى فى القصة الثانية كيف تحتفظ مدام دى كليف وزوجها بوقارهما وترفعهما ، وبلغت التخاطب الصارمة بينهما ، حتى وهما يموتان من الحزن !.. فى حين تنزل « جوليا » و « سان بريو » عن منزلة هذه البطولة شبه الإلهية ، إلى منزلة البشر الضعفاء . فيطلقان التهديدات .. ويذرقان الدموع .. وحين يبلغ بهما الانفعال والتأثر مبلغهما ، يقطع عباراتهما النشيج والغصة !.. صحيح أن أشخاص كل من الروايتين يقاومون شهوتهم باستبسال ، ولا يستسلمون لها

كما يفعل أبطال كثير من القصص العصرية لكن الفارق الجوهرى بين القصتين ، هو أن « الحافز » على المقاومة يختلف فى كل منهما : فهو بالنسبة لمدام دى كليف : الشرف !.. لكنه بالنسبة لجوليا : العفة !.. وقد يبدو أن الشرف أقوى من العفة ، إذا لاحظنا أن مدام دى كليف ظلت طاهرة الذيل ، بينما استسلمت جوليا من أول وهلة .. بل شجعت حبيبها على أن يحترى عليها !.. وإذا قارنا بين مشهد الغابة فى كل من القصتين ، ألفينا المفارقة صارخة : فمدام دى كليف لا تعلم أن حبيبها مختبئ بين الأشجار يرقبها .. ومن ثم يستمر المشهد حالمًا مخلقًا فى عالم الصفاء !.. أما جوليا فهى التى تدعو حبيبها إلى لقائها فى الغابة ، وتمنحه القبلة التى لم يجرؤ على طلبها !.. والفارق بين « الرجلين » فى كل من القصتين لا يقل استرعاء للنظر : فنحن نرى « دى بربو » رجلاً ضعيفاً خائراً ، بل حقيراً - على حد تعبير « ستندال » - فى حين كان كل من « دى كليف » و « دى نيمور » بطلاً ، شهماً ، نبيلًا !

هل الإنسان عفيف بطبيعته ؟

● على أن قصة روسو إذا لم تتطرف فى « السمو » إلى مستوى « مدام دى كليف » ، فإنها لا تتطرف من ناحية أخرى فى « الواقعية » إلى مستوى قصة أخرى من الروائع الكلاسيكية ، هى « مانون ليسكو » حيث لا يوقظ الحب الشهوانى أى وخز فى الضمير .. وحيث يستسلم

أشخاص القصة لغرائهم دون أى وازع خلقى ! .. ففى قصة روسو على الأقل نجد فكرة العفة ماثلة لنا على الدوام .. والعفة عنده هى « الحاسة الباطنية التى توجه إلى فعل الصواب » .. هى القانون الطبعى أو الإلهى - (والمعنيان فى نظر روسو مترادفان) - الذى يسيطر على أفعالنا ! .. فروسو يؤمن بأن الإنسان ، إذا استطاع أن يستخير ضميره بملء حريته ، سار دون مشقة فى الطريق الذى يرسمه القانون الإلهى فإذا كان لا يفعل ذلك فلأن المجتمع يحيد به بعيداً عن هذا الطريق ! .. ومن هنا نرى جوليا وفولمار قد استطاعا أن يعيشا وفقاً « للطبيعة » - وبالتالي وفقاً لمقتضيات « العفة » - ، متى ؟ حين اختارا العيش فى الريف .. أعنى بعيداً عن المجتمع !

ولكن هل صحيح أن الإنسان ، إذا تحرر من المفريات التى يضعها المجتمع فى طريقه ، يكون بطبيعته عفيفاً ؟ وهل أشخاص روسو ، مثل جوليا أو فولمار ، فيهم طباع البشر الحقيقيين ؟ لو سئل روسو هذا السؤال فلنأى أعتقد أنه كان يجب بقوله إن هؤلاء الأشخاص أكثر واقعية ، و « بشرية » ، من المنافق أو الداعر الذى صورته سواه من مؤلفى القصص فى ذلك العصر .. أمثال « لاروشفوكو ! »

وقد كتب روسو هصف الشعور الذى انتابه حين أعاد قراءة

« هيلويز الجديدة » بعد أن أتم كتابتها ، قال : « .. أما وقد فرغت من إعادة قراءة هذه القصة ، فلأنى أستطيع أن أفهم لماذا تروقنى ، كما لا بد تروق لكل قارئ سليم النفس والطوية .. ذلك لأنها تثير حولها جواً من النقاء .. النقاء غير الممزوج بالآلم ، ولا الشرور ، أو الجرم ، أو أعاصير البغضاء والكراهية .. فأنا لا أفهم كيف يمكن أن توجد أية متعة فى تصور أو تصوير شخصية نذل حقير ! .. بل أنى لأرثى لأولئك المؤلفين الذين تحفل مآسيهم بالفواجع الرهيبة .. ولئن كنت على استعداد للاعتراف بمواهبهم وعبقريتهم ، غير أنى أحد الله لأنه لم يمنحنى هذه المواهب والعبقرية ! »

وهو على حق .. فالتناس الأبرار « موجودون » ! وهم إذا لم يظهروا كثيراً فى القصص ، فلأنما سبب ذلك هو خشية المؤلفين أن يضيق القراء بوجودهم ، أو يتهموهم هم - خالقيهم - « بالنفاق » و « الرياء » اللذين نتمقتهما جميعاً .. لكن الواقع أن الأشخاص « الطيبين » أو الأبرار ليسوا دائماً مجلبة للضيق والسأم ، فنحن لا نضيق بشخصية مسيو « ميريل » فى (البؤساء) .. ولا بشخصيتى « أوجينى جرانديه » أو أمها مدام جرانديه فى قصة بلزاك المعروفة بهذا الاسم .. بل إن هؤلاء جميعاً - على العكس - يتمتعوننا حقاً ، وأى متعة !

ذلك أن العفة التى تبعث الضيق والسأم هى العفة الزائفة ، لا العفة الحقيقية .. أما هذه فتبعث البهجة والانشراح ، وكل

ما يلزمها كي تكون محبوبة أن تقترن بالموهبة عند الكاتب الذى يصورها !

وقد وضع فيها روسو ذوب قلبه ، فكفل لها الغلبة والنصر !

نقد « فولتير » للقصة

● على أن القصة لم تسلم من قلم « فولتير » الساخر ، فكتب يقول فى نقدها : « إن الشخصية الرئيسية فى القصة هى شخصية شاب سويسرى تلقى دراسة ضئيلة . وراح يلقي ما تلقى لجوليا ، وهى ابنة « بارون » من نبلاء إقليم (فود) وإذا نحن نرى الشاب يتحدث إلى جوليا فى الحب وجوليا تمنح معلمها قبلة طويلة ، شديدة المرارة ، يروح الشاب يردد شكواه منها ! .. وفى اليوم التالى يودع صاحبنا أحشاء فتاته « جنيناً » وقد تحسب النساء أن هذه هى نهاية القصة ، ولكن هنا — أيها الرجال — عقدة القصة الدقيقة ، هنا فلسفتها الرائعة ، التى تتيح لها أن تستمر خمسة مجلدات أخرى بعد هذه النهاية ! » .

ثم يصف « فولتير » موقف « فولمار » وهو يواجه الشاب « سان بريو » على هذا النحو : « لقد كنت عشيق زوجتى ، وسوف تظل دائماً صديقتها الصدوق .. لكنك ستحرص أيضاً على صداقتى أنا الآخر .. فلنعش ثلاثتنا معاً ، كمواطنين سويسريين طيبين . كأقارب متحابين .. كما لو لم يكن قد حدث شيء ! ..

ولتكن على ثقة من أن حياتنا على هذا النحو سوف تكون نموذجاً
للفلسفة والسعادة ! .

وهو نقد طريف ، لكنه ظالم ! .. فبرغم كل حملات النقد ،
ومخزيتهم ، فقد كان نجاح الكتاب خالداً .. حتى لقد جعل من
روسو معلماً للجيل ، وقائداً « روحياً » له ، علم الناس حب الطبيعة ،
والحنين إلى الحياة البسيطة .. وصارت حساسيته ، التي كانت أشد
حدة من حساسية الرجل العادي – حتى يمكن اعتبار أنها كانت
عنده « مرضاً » من الأمراض ! – صارت القاعدة والنموذج لقومه .
لعدة أجيال

وفي الفصل القادم يواصل الحب كشف وجوهه المختلفة لنا ...



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق : اندريه موروا

٣ - الحب الحَرَام !

(العلاقات الخطرة)

الوجه الثالث .. من وجوه الحب !

● في قصة « جوليا » رأينا روسو . الخيالي . يهرب من عصره ويصور الحب كما يريد أن يكون ! .. أما في هذه القصة - « العلاقات الخطرة » - فالمؤلف . الواقعي . « لا كلو » يعيش في عصره ويصور الحب كما يراه في المجتمع بالفعل ! .. والمجتمع الذي عاش فيه لا كلو وصوره هو المجتمع الأرستقراطي الفرنسي في القرن الثامن عشر .. مجتمع ينعم فيه الرجال والنساء بفراغ كامل . لا يعرفون الكدح من أجل العيش . ولا يسمح لهم بممارسة (لعبة) السياسة التي تشغل جزءاً كبيراً من وقت فراغ الرجل في القرن العشرين . فإذا يفعل الإنسان ، حين لا يجد ما يفعله غير أن يحب ! ؟ إن الحب يصبح عندئذ هواية كالشطرنج يتبادل فيها اللاعبان الغلبة . ثم يغير كلاهما رفيقه في اللعبة كي يمارس براعته وحيله مع آخر . وهكذا .. !
إنها لعبة قاسية . لا ترحم .. ولكن . هكذا الإنسان !

المؤلف

● ومؤلف قصة (العلاقات الخطرة) هو الجنرال « كوديرلوس دى لاكلو » . وكان عندما ألفها - عام ١٧٨٢ - ملازماً بسيطاً في حامية مدينة (جرينوبل) لفت أنظار المجتمع الراقى فيها بقوامه الطويل النحيف ، وبشرته الشاحبة ، وعينه الزرقاوين ، وحساسيته المرفهة ، وطبعه النارى . وكان من المعجيين بروسو كاتب ذلك العصر . وقد يخيل لمن يقرأ قصته (العلاقات الخطرة) أنه كان هو نفسه « دون جوان » من فرسان الغرام الخطرين ! ولكن أغلب الظن أنه لم يكن كذلك . بل كان - مثل هنرى جيمس ومارسيل بروست - شغوفاً بالتحدث إلى النساء ، والإصغاء إلى أسرارهن وقصصهن . والنساء عادة يأتين على أسرارهن الرجال الفضوليين « غير المحاريين » ، أكثر مما يأتين العشاق الذين يمارسون الحب فعلاً ، لا قولاً ، أو كتابة ! .. وعندما نشر لاكلو فيها بعد (العلاقات الخطرة) استطاع أهالى مدينة جرينوبل أو خيل إليهم أنهم استطاعوا التعرف في أبطالها على بعض أشخاص مدينتهم الحقيقيين . الأمر الذى كفل للكتاب رواجاً كبيراً !

وقد اتهم بعض النقاد القصة بأنها تصور حياة حفنة من الرجال العابثين والنسوة العاهرات ، ممن لا يمثلون المجتمع كله بحال من الأحوال .. مثلما حدث في فرنسا أخيراً في الفترة بين عامى ١٩٢٠ -

١٩٤٠ ، حين ملأ ثلاثون أو أربعون من المستهترين جو باريس ، وصحافتها بأنباء مغامراتهم وغرامياتهم ، في الوقت الذي كانت فيه بقية الشعب تحيا حياة عائلية نظيفة بلا جعجعة ولا ضجيج ! .. ويدعم أصحاب هذا الرأي حجتهم بأن الروائي يكون عادة أميل إلى الكتابة عن العاهرة منه إلى الكتابة عن القديسة ، فإن حياة الأولى أحفل بالحوادث والصور من حياة الثانية فضلا عن أن ضابطاً فقيراً مثل « لاكلو » لابد قد غالى في تصوير الجانب المظلم من حياة النبلاء ، مدفوعاً بحفده المرير عليهم ، شأن أفراد طبقته في تلك الفترة السابقة مباشرة لنشوب الثورة الفرنسية !

وقد أثارت القصة بالفعل عند صدورها « هياجاً » بين أفراد الطبقة النبيلة التي كانت موجهة ضدها .. فلم يبق شخص في باريس وفرساي إلا وتاق إلى أن يعرف المؤلف الجريء ! وساء رئيس « لاكلو » في الجيش أن يكون مرءوسه الضابط روائياً « ماجناً » ، لكن الشاب كان بارعاً في عمله متمكناً من فنه الحربي ، فشفع له ذلك لديه وأنقذه من غضبه ! ... ورغم تعرف الناس على شخصيات القصة بين أهالي (جرينوبل) ، فإن الخاصة منهم اعتبروا الكتاب عملاً أدبياً غير مقيد بزمان أو مكان .. وقد فطن المؤلف إلى هذا فقال : « إن القارئ المحرب يستطيع بسهولة أن يتزع عن شخصيات القصة أو صافها وثياها التي تنطبق على بيئة معينة ،

ويراها نفسيات عارية قابلة لأن تلبس ثياب وأوصاف بيته التي يعيش فيها .

والغريب في الأمر كله أن هذا المؤلف الناجح الذي ظفر كتابه بمثل هذا الرواج والتقدير ، لم يؤلف بعده كتاباً آخر ! .. والأغرب من ذلك أنه وهو خالق شخصية فالمون (الماجن) ، كان في حياته الخاصة على خلاف ذلك ، فقد تزوج وصار أسعد الأزواج . وأشدهم تعلقاً بزوجته ! - كما يظهر من خطاباتهِ إليها - وكانت هي أخت أميرال الأسطول الفرنسي ، وتدعى « سولانج دوير » .. اصغ إليه وهو يقول لها في خطاب « إليك أدين بسعادتي طيلة الإثني عشر عاماً الماضية ، ولا شك أن الماضي أكبر ضمان للمستقبل وإنتى لسعيد بأن أراك تشعرين أخيراً بأني أحبك . ولكن اسمحي لي أن أذكرك بأنه خلال الأعوام الماضية كلها لم يحدث ما يجعلك تشكين في ذلك ! .. ثم يمتدحها في خطاب آخر لكوها « عشيقه » خلافة ، وزوجة كاملة ، وأم رقيقة في وقت معاً ! .. وحين تلوم نفسها على بدانتها يقول لها معجباً في تورية لطيفة : « كلما صار لي منك قدر أكبر ، ازدادت في قلبي قدراً ! .. » .

وقد دامت عاطفته هذه نحو زوجته عشرين عاماً - الأمر الذي لا يحدث من رجل ماجن ! - وقد فكر لاكلو في كهولته أن يكتب قصة أخرى يثبت بها أن السعادة الحقة لا توجد خارج

نطاق البيت والعائلة .. لكنه لم يحقق فكرته ويرى أندريه جيد أنه حسناً فعل بعدم تحقيقها ، جازماً بأن لاكلو الروائي الساخر ، المولع بالمؤامرات والانسائس الغامضة ، لا يمكن أن يكون مخلصاً في حبه للفضيلة .. بل لا شك أنه يضع يده في يد الشيطان ! .. بينما يحيل « أندريه موروا » إلى عدم مشاركة زميله رأيه هذا ، وإن أقره على أن لاكلو قد عرف كيف يصور الشيطان في قصته أروع تصوير ، وأنه برع في وصف « جحيم » الحب الحرام ! .. كما اتفق الكاتبان المعاصران في أن لاكلو قد بلغ بقصته (العلاقات الخطرة) مرتبة .. « راسين » !

القصة

● الشخصيات الرئيسية في القصة خمس :

الفيكونت دى فالمون : وهو دون جوان « محترف » خبير بفنون الغرام ، يستيحي لنفسه فيها ما يتورع عنه إبليس !

المركيزة دى ميرنوى : وهى فى طباعها واستباحتها وقوتها توأم للفيكونت دى فالمون ، بل لعلها تفوقه وتبزه فى المناورات الشيطانية !

السيدة دى نورفيل : وهى حسناء من طبقة العامة ، تقية ، ومحتشمة ..

ميسيل دى فولانج . وهى عذراء ساذجة ، خرجت حديثاً

من مدرسة الراهبات .. تريد أمها أن تزوجها بأسرع ما في وسعها من « الكونت دي جيركور » ، وإن كانت الفتاة تحب شاباً آخر هو الشيفالييه « دانسينى » !

ثم الشيفالييه دانسينى : وهو بدوره يحب سيسيل لكن المركيزة دي ميرتوى توقعه في حبائلها فتتخذ منه عشيقاً ، دون أن تحبه ! فإذا بدأت القصة رأينا العلاقات الخطرة بين أبطالها معقدة متشابكة : فإن الكونت دي جيركور ، الذى تدخره أم سيسيل زوجاً لابنتها ، كان يوماً عشيقاً للمركيزة دي ميرتوى ، وخانها خيانة لم تستطع الشريرة أن تغفرها له حتى الآن .. ومن ثم فهى تتحين الفرصة للانتقام منه ، بغير رحمة !.. فتراها تلجأ في هذا الشأن إلى فالمون - الذى كان بدوره أحد عشاقها الغابرين ، وظل صديقاً وشريكاً لها في مؤامراتها ! فيبينهما لا يوجد رياء كاذب ولا تظاهر خادع ، بل مشاركة قديمة في المتعة ، قد تتجدد في أية لحظة ، دون أن يكون للحب نصيب فيها .. مثلهما مثل اللصين اللذين يعملان معاً ، يحدوهما « تقدير » متبادل من أحدهما للآخر - في عمله - لكنه تقدير لا يصل إلى حد الثقة !

وهكذا تكتب المركيزة خطاباً إلى « فالمون » تقول له فيه « .. ولعلك تعلم كم يعلق جيركور من آمال على عفة الفتاة التى يزعم أن يتزوجها فإذا استطعت إغواء سيسيل ، والإيقاع بها قبل الزواج ، أمكننا أن ننقم من عدونا .. ونسخر منه !.. وفوق

ذلك فإن الفتاة تستحق أن تحظى بانتباهك ، فهي جميلة حقاً ، وفي الخامسة عشرة ... زهرة نضرة لم تفتح أكلامها بعد ! .

لكن فالمون لا يبدى تحمساً للفكرة في البداية .. فإن الإيقاع بفتاة غريبة لم تر أو تسمع من الحياة شيئاً ، ليس بالمهمة الجديرة برجل مجرب مثله . ومن ثم فهو يكتب إلى المركيزة رداً على خطابها : « كلا .. فلاني الآن مشغول بمغامرة سوف يحقق لي نجاحها المجد والمتعة .. إنك تعرفين السيدة دي تورفيل ، وتعرفين تدينها وتقواها ، وحبها لزوجها ، ومبادئها الصارمة .. تلك هي القلعة التي أهاجمها الآن .. وهذا هو العدو الجدير بمثل .. والهدف الذي أطارده ! .

وكان فالمون يقيم وقتئذ في الريف ، في قصر عمه السيدة دي تورفيل ! وكانت هذه تقيم عند عمته في الوقت نفسه ، فاستنفذ حصاره للمرأة التقية كل وقته وجهده مما أسخط عليه صديقه المركيزة ! .. ماذا ؟ أبرئني رجل مثل دي فالمون عند قدمي امرأة مثل دي تورفيل ؟

وتلقى « دي تورفيل » خطاباً من مجهول يحذرهما فيه من نيات فالمون ، لكنها تدافع عنه بحماسة تفضح مبلغ اهتمامها بأمره : « أنه يحدثني بثقة كاملة ، وأنا أعظه بصراحة تامة .. وكل من يعرفه يستطيع أن يتصور كم ستكون هدايته إلى الصراط المستقيم رائعة ! . وعلى أي حال فإن الذي يمكنني أن أجزم به هو أنه ، رغم صلته

الدائمة بي ، وما يديه من استمتاع بصحبتى ، لم يدع كلمة واحدة من كلمات الحب تفلت من فمه .. قد يحدث أنه يتملقنى أحياناً ، ولكن بلباقة يحسد عليها ! .

وهكذا يتمكن الشيطان ، وهو يرتدى مسوح الرهبان ، من أن يواصل تلقين دروسه للقديسة !

• • •

● وتشابك المناورات الثلاث : فيعهد الشيفالييه دانسينى - الذى فرقت الظروف بينه وبين الاتصال بحييته سيسيل - إلى فالمون بتوصيل رسائله إليها .. وهنا .. هنا فقط .. يغدو الإيقاع بالفتاة أمراً شائعاً فى نظر فالمون ، فإن خيانة « صديق » تغدق شيئاً من (التوابل) المشبهة على إغواء فتاة بريئة ! وهكذا يبدأ فالمون مناورات الشيطانية بأن يزعم لسييل الغريرة أن تسلمها لخطابات حبيبها فى وضع النهار أمر عسير ، ومن ثم يحصل منها على مفتاح غرفتها .. كى يحمل إليها الوديفة تحت جنح الظلام ! وذات ليلة يتسلل إلى غرفتها ويجلس على حافة فراشها .. ويسرق منها قبلة ثم أكثر من القبلة ! .. وإذا هو قد أصبح عشيقاً للفتاة الجميلة التى تهبه جسدها ، بينما قلبها ملكاً لحبيبها دانسينى ! إنها تقبل هذه المشاركة الشاذة بغفلة طبيعية بالنسبة لسنها ! .. ومنذ تلك الليلة تستقبل فالمون كل ليلة مرحلة ، فيغويها طبقاً لخطة منظمة .. وحين تصبح ، تكتب لدانسينى خطاباً رقيقاً يفيض حباً ووجداً !

لكن هذا النجاح لا يقعد فالون عن مواصلة مطار دته للمرأة
 التقية دى تور فيل . وكان قد بلغ معها مرحلة التحدث إليها عن
 الحب ، وإغرائها بالإصغاء إلى حديثه ! .. وتنبه المرأة فجأة
 لما أصابها ، فتحاول إنقاذ نفسها بالفرار ! .. لكن مقاومتها
 للدهاية الماكر إنما تلهب رغبته وتضاعف من شوقه إلى إخضاعها ،
 بدل أن تئسه . فيكتب فى وصف شعوره بعد فرارها : « إننى
 لن أسترده سعادتى ورضائى قط حتى أنال هذه المرأة ، التى أكرهها
 وأحبها بنفس الانفعال ! » وأن قدرى لن يغدو محتملاً إلا فى
 اللحظة التى تصير هى فيها رهن مشيئتى .. وعندئذ ، وأنا فى أتم
 هدوئى ، سوف يغبطنى أن أراها تصبح بدورها فريسة لنفس العذاب
 والأهوال التى أقاسيها أنا الآن .. إن الساعة التى أحلم بها سوف
 تأتى حتماً ! » .

وكان يحق له أن يأمل خيراً . فإن النعمة كانت قد تورطت
 فى حبه ، إلى حد اليأس ! ولكن كيف يتوصل إلى تحطيم آخر
 أسوار مقاومتها ؟ .. لمثل ذلك كانت « ترسانة » فالون نحوى مختلف
 الأسلحة التقليدية : زعم الشيطان لها أن عزمه قد استقر ، بدافع
 من يأسه ، على اعتزال العالم . والانزواء فى دير !
 وأحدث التهديد فى المرأة الحجول أبلغ الأثر . فرضيت أن
 تستقبله أخيراً . وحين انفرد بها ، واجهها بتهديده الجديد
 الخفيف : « دعبنى أنا لك .. أو أموت ! » .. لكنها تظل تبعده ،



وحين انفردها ، واجهها بتهديده الجديد الخفيف
« دعيني أنا لك .. أو أموت ! » ..

وتروغ منه وإذ ذاك . فى فحيح كئيب ، هامس ، يغمغم لها :
« إذن لم يبق إلا الموت » ! .

فتسقط مغشياً عليها بين ذراعيه !
ويظفر بها ! ..

• • •

● ثم تأتى مرحلة اليقظة ، والندم ، حين تكتشف دى تور فيل
— التى كانت تحسب فالمون متيماً بها — أنه بعد أن نالها ظل كالعهد
به ، ذلك العايب الما جن الذى عرفته ، وأنه يخدعها فتعابه ..
ويرد هو عليها بخطاب قاس فتدخل الدير ، يأساً ، وزهداً !
أما سيسيل فيكتشف حبيبها الشيفاليه دانسينى بدوره حقيقة
ما حدث لها ، فيعمد إلى تحدى فالمون — الجانى عليها — ومبارزته .
وقتلها ! .. وحين يصل نبأ موته إلى مسمع « دى تور فيل » فى
ديرها تلحق به !

ويتخلى جيركور عن خطيبته سيسيل بعد أن تلوّث فتدخل
الأخرى الدير وتصير راهبة ، تقضى بقية حياتها فى التعب .. والتكفير !
أما المركيزة دى ميرتوى — مدبرة هذه المآسى — فتصاب
بالجدري .. لكنها تنجو من الموت ، كى تعيش مشوهة : بعين
واحدة ، ووجه كريبه مفزع ! .. وتنتهى القصة بهذه العبارة :
« أى إنسان لا يرتجف جسده هلعاً ، حين يتدبر البلايا التى قد
تسببها علاقة واحدة خطيرة .. أو حب محرم ؟ ! »

العلاقات الخطرة .. بين الخيال والواقع !

● تلك هي شخصيات قصة « العلاقات الخطرة » كما صورها « لاكلو »

فهل هي شخصيات يمكن أن يتصورها العقل ، وهل يمكن أن توجد طبقاً لمنطق الحياة ؟

نعم ! ..

بل إن التاريخ يحدثنا بأنها وجدت فعلاً ، وفي أشخاص يعرفهم هو ونعرفهم نحن !

أما « الفيكونت دى فالمون » .. فقد وجد في شخص الشاعر « يرون » !

أما المركيزة دى ميرتوى فهي خليط من « ليدى ميلبورن » و « ليدى أكسفورد » ، اللتين كانت إحداهما « كاتمة سر » يرون .. والثانية خليطته ! ولو قرأنا الرسائل المتبادلة بين يرون وليدى ميلبورن لوجدناهما يتحدثان فيها عن ألعيب الحب ، وحملاته ، ومناوراتهن بنفس اللهجة التي يتحدث بها الفيكونت دى فالمون والمركيزة دى ميرتوى ! . اللهجة التي تعتبر كل مقاومة في الحب صعوبة ، يستطيع « الخبير » أن يذللها . بطريقته الخاصة !

الفرق الوحيد بين يرون ، وفالمون أن الثاني أفسد سبيل ، أما الأول فقد عفا عن « ليدى فرانسيس وبستر » ، فجنبها تلك

الهاوية !.. وهنا يحق لنا أن نتساءل : ما الذى يفسر شخصية قالمون ؟ وهل طبعى أن يكون إنساناً شريراً إلى هذا الحد ، قاسياً في حبه على هذا النحو ، بينما الحب يرهف الحس عادة ، ويزيد من رقة القلب ؟.. تلك هى مشكلة « الدون جوان » الذى من هذا الطراز . وهى مشكلة نجد لها فى حالة بيرون تفسيراً واضحاً ، ومبرراً معقولاً فإن بيرون ، الذى خلق بطبعه عاطفياً ، قد انقلب مخادعاً لا يرحم فى اليوم الذى خائنه فيه الفتاة التى أحبها وأخلص لها ، وهكذا يكمن وراء الحرب القاسية التى شنها على النساء عنصر وعامل « الانتقام » ! وهو الباعث الأول فى تكوين شخصية « الدون جوان » يلبه باعث ثان . هو النجاح الذى بصادفه الشخص فى اكتساب قلوب النساء ، والذى لا يلبث أن يشجعه على غزو قلوبهن لمحض إرضاء غروره وإعلاء مجده فى هذا الميدان !.. ثم يلى هذين الباعثين باعث ثالث : هو الشعور بالملل الذى يغرى بفتح ميادين جديدة . والاشتباك فى « معارك » جديدة !.. وفى هذه الأحوال تكون القسوة . والانتصار على البراءة والسذاجة ، وتخطى العوائق الأخلاقية والدينية . أشبه « بالتوايل » التى تفتح شهية الدون جوان على موائد الحب . فترى قالمون يستمد لذته من تعذيب المرأة النقية مدام تورفيل ، ويصف شعوره بقوله : « نعم ، يلذ لي أن أرى وأتأمل هذه المرأة المحاذرة تتورط دون أن تشعر فى طريق لا رجعة منه . تقودها منحدراته الخطرة بالرغم منها ،

وتضطرها إلى أن تتبعني ! .. وحين تبين الخطر الذى يكتنفها تتوقف برهة ، وتنظر حوالىها . فلا تجد سبيلا للرجوع أو التقهقر .. كل ما تستطيعه هو أن تنبأ فى خطواتها . ولكن لابد من أن تتبع الخطوة الأخرى ! وأحياناً لا تجرؤ على مواجهة الخطر الذى أمامها ، فتغمض عينيها وتترك نفسها لرعايتي . وكثيراً ما يمدّها الخوف والرعب القاتل بالقوة على أن تبذل محاولة أخيرة . فتلفت إلى الخلف ، وتركض مسافة قصيرة . لكن قوة سحرية لا تلبث أن تجذبها إلى نقطة أقرب إلى الخطر من النقطة التى كانت فيها حين حاولت التمرد والفرار !

وأخيراً يبلغ فجور فالمون وقحته حدّها الأقصى ، حين يحلو له وهو راقد فى فراشه مع عاهرة أن يتخذ من ظهورها « منضدة » يكتب عليها لمدام دى تورفيل التعة : « لم أشعر قط من قبل بمتعة وأنا أكتب إليك مثل المتعة التى أحسها الآن ! ولا تملكنى يوماً هذا الانفعال العذب الحاد الذى يملكنى فى هذه اللحظة كل شيء حولى يزيد من نشوئى : الهواء الذى أتنفسه مفعم باللذة ، والمنضدة التى أكتب لك عليها - والتى تخصص لأول مرة لهذا الغرض ! - تبدو لى فى صورة مذبح الحب المقدس ما أجملها فى عيني ! .. أقسم لك أنى أحبك على الدوام . ولتغفر لى اضطراب مشاعرى . فربما كان ينبغى ألا أسلم نفسى للذة لا تشاركينى

إياها ! فلاتركك الآن كي أطفىء انفعالا يترابد لحظة بعد أخرى
بحيث يوشك أن يغدو أشد مما أحتمل !

لكن فالمون كان ليصبح أقل شراً وقسوة لو لم تكن بجانبه
« مدام دي ميرتوى » فحين تستيقظ فيه بقية من عاطفة رقيقة ،
تكتب هي إليه « يبدو أنك قد وقعت في هوى هذه المدام
دي تورفيل ، ذلك النوع من الهوى الذى يجعل الرجل يرى في
المرأة صفات من السحر لا تملكها ! لكنى وأنا الخيرة بك ، أعلم
أنك غير قدير على الحب الطاهر أو الحب الرقيق غير قدير
إلا على ذلك الحب الذى يحسه السلطان نحو سلطانه المفضلة ،
والذى لا يمنعه أحياناً من أن يخونها مع جارية !

وهكذا تقف له مدام دي ميرتوى بالمرصاد .. كتلة من الشر
الخالص ، الذى لا أثر فيه لشعور ولا ظل فيه لشفقة .. فهي تبحث
عن المتعة وحدها ، لكن هذا أهون شرورها ، فلأنها إلى جانب
المتعة تسعى إلى السيطرة ، والفوز وعند أية بادرة مقاومة تعتمد
فوراً إلى الانتقام ! .. بحيث يغلب على الظن أنها عانت في طفولتها
وصباها نوعاً شديداً من مركب النقص لا يجد تعويضاً عنه إلا في
أفضع صور النعمة والشوق إلى تدمير الرجال والنساء ، والسخرية
من بعضهم ، وتلويث شرف بعضهم الآخر أو قتله ! .. وبغير هذا
لا تستشعر رضى أو سعادة !

وفي الوقت الذي تستمتع فيه مدام ميرتوى بفجورها ، تنكر أمام المجتمع في ثوب المرأة الفاضلة ! .. فيشيد أهل التقى بورعها ، بينما هي تستقبل العشاق في بيتها ! .. وهكذا تبلغ في الرياء درجة النبوغ ، حتى لتباهي في خطاب منها إلى فالمون بقولها : « ماذا فعلت أنت ولم أفعل أنا أكثر منه ألف ضعف ؟ لقد أغريت وحطمت نساء كثيرات ، ولكن ما هي الصعاب التي حطمتها كي تبلغ غايتك ، بالنسبة إلى ما حطمت أنا من صعاب ؟ » !

ورغم ذلك فإن هذه المتوحشة الحسناء تستطيع ، حين تريد ، أن تكون امرأة ترى عشيقها من فنون الهوى عجباً ! .. اقرأ ما تصف به خلوة لها مع أحد عشاقها : « كان أمامنا ست ساعات نقضها سوياً .. فاعتزمت أن أجعل معها كلها فترة ممتعة حقاً ، بحيث اقتضاني الأمر أن أتلون كل ساعة بلون جديد ، وانقلب بلا هوادة بين الرقة والعبث ، والإقبال والإعراض ، والمزاح والجد ، والانفعال والفتور ... إلخ .. ولا أذكر أنني بذلت يوماً جهداً لإرضاء رجل ونجحت فيه ، مثلما بذلت ونجحت في هذه المرة ! .. فلإننا لم نكد نفرغ من العشاء حتى حلا لي أن أتصوره سلطاناً وسط حريمه الكثيرات . اللواتي تقمصت شخصياتهن ، الواحدة بعد الأخرى ، فكنت ألتقي مداعباته في كل مرة بروح عشيقة تختلف عن سابقتها !

● وبقدر ما كانت شخصية مدام دي ميرتوى تمثل الشر ، كانت شخصية مدام دي تورفيل ، تمثل الخير ، وكل ما يناقض طباع غريمتها ! كانت رقيقة ، مخلصه ، تعيسة ، وقديرة على أن تموت حباً ، وتفنى نفسها في سبيل من تحب . وأخيراً كانت على النقيض منها في طبقتها الاجتماعية ، فهي من طبقة العامة ، بينما تلك من طبقة النبلاء .. وهنا يكمن مغزى الكتاب كله ، ومبلغ فضحه لفساد مجتمع الطبقة الراقية ، الذي كان من عوامل نشوب الثورة الفرنسية ! فإن تلك الثورة لم توجه ضد الفساد السياسي وحده ، بل كانت موجهة ضمناً ضد الانحلال الخلقي الذي تفشى بين أفراد الطبقة الحاكمة ، والذي أثار في البداية غضب الطبقة المحكومة ، ثم احتقارها . ثم ثورتها في النهاية !

تلك هي قصة « العلاقات الخطرة » وشخصياتها . فهل تعتبر القصة أخلاقية ، أم منافية للأخلاق ؟

اقرأ ما يقوله « أندريه مورو » جواباً على ذلك : « جرى عرف أصحاب النظرة السطحية على اعتبار هذه القصة ومثيالاتها « غير » أخلاقية .. بينما الحقيقة عكس ذلك ، فالكتاب الأخلاقي من واجبه أن يصف المجتمع غير الأخلاقي ، كي يأخذ الناس حذرهم من مزالقه الخطرة . وهو يخيف قراءه ببشاعة ما يصوره ، لأنه صادق ، والصدق يخيف الإنسان ! .. فالحب كما وصفه « لاكلو » وكما مارسه في القرن الثامن عشر ، جدير بأن يسمى بالحب المنطوى

على حرب ، أو الحب المنظور على متعة فهو ينبع من نفس العقلية المستهترّة التي كانت تنبع منها آراء أهل ذلك العصر في شئون السياسة .. وهى عقلية كانت تؤمن بديانة « القدرة على كل شيء » والتجديد فى مقاييس المجتمع والعواطف والأخلاق التي كونتها الحضارة على مر القرون ! .

وفى ما يلى بعض المبادئ « الأخلاقية » التي استحدثها « المجددون » فى القرن الثامن عشر

١ - المتعة خير خالص ، يجب أن يحاول الإنسان ممارستها بكثرة وحدة ، ما واثته الفرصة !

٢ - إذا رفضت امرأة دعوة إلى متعة ، فواجب الرجل أن يقنعها بالقبول .. ولكى يصل إلى هدفه هذا يجب عليه أن يحطم حصون دفاعها ، وهى الدين ، والخوف ، والقناعة فى أمور الجنس ، والإخلاص .. وهذا ما تأخذه مدام دي ميرتوى على عاتقها حين تخاطب سيسيل الساذجة بقولها : « إذن فأنت غاضبة وخجلى يا عزيزتى ؟ وأنت تعتقدين أن مسيو دى فالمون رجل شرير لأنه يجرؤ على معاملتك كما لو كنت حبيته ، ويعلمك ما تتحرقين شوقاً إلى معرفته ، فى حين كنت تريدن أن تحتفظى بهذا الشرف لحبيبك ؟ .. لكن حبيبك هذا لا يستغل الموقف ، وأنت بمسلكه هذا لا تذوقين غير عذاب الحب ، دون متعة ... إلخ ! » .

٣ - إن قواعد الأخلاق لا تنطبق على مخلوقات معينة تسمى فوق هذه « السخافات » !.. وفي هذا تقول مدام دي ميرتوى : « لست من أولئك النسوة المخرفات اللواتي يبدو كأن الطبيعة قد وضعت حواسهن في رءوسهن !.. وإنما أنا قد وضعت لنفسى مبادئ خاصة هي ثمرة تأملاتي العميقة ، وليست ثمرة الصدفة .. أو حكم العادة » !

و « المخلوقات » التي تسمى فوق « سخافات » الأخلاق هي تلك التي تنظاهر بعواطف زائفة لا تحسها ، كي تنعم بالمتع التي هي في نظرها الحقائق الوحيدة في الحياة .. وتدرس في برود مواطن الضعف عند الآخرين ، كي تستخدمها للسيطرة عليهم ! - مثلاً فعلت مدام دي ميرتوى ، ومسيو دي فالمون - فهل يحقق هذا المسلك لأصحابه السعادة ؟

إن قصة «العلاقات الخطرة» ترينا بوضوح أن المسلك المذكور يعجز عن أن يحقق السعادة لأحد من الذين اتبعوه !.. فإن « مدام دي ميرتوى » نفسها تنهى إلى الاعتراف بأن المتع الجسدية تجلب الملل والسأم إذا لم تنعشها العاطفة الحقيقية وأن المتعة - التي هي الدافع الأوحده إلى اجتماع الجنسين - لا تكفي لتكوين رابطة بينهما ، فلئن كانت تسبقها الرغبة - التي تقرب بينهما - فإنه يعقبا الاشتراز ، الذي يبعد أحدهما عن الآخر .. هذا هو قانون الطبيعة ، الذي لا يقوى على تغييره سوى الحب وحده !

وإذا قارنا بين مغزى كل من قصة « العلاقات الخطرة » وقصة « جوليا » التي كتبها روسو ، خرجنا من المقارنة بأن الحب الحرام — كما صورته القصة الأولى — يولد مللا ووحشة كثيفة بينما الحب الرومانتيكى العفيف — كما صورته القصة الثانية — يغالى فى تجاهل حقائق اللحم والدم !

فهل من الممكن الجمع بين هذين اللونين من الحب ؟
 هل من الممكن أن نجمع شخصية بين عفة « سان بربو » بطل قصة « جوليا » ، وعنف « فالمون » بطل قصة « لاكلو » ؟
 هذا ما نجده فى قصص « ستندال » .. أو فى الوجه الرابع من وجوه الحب ... وموعدنا به الفصل التالى

• • •



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق اندريه موروا

٤ - الأحمر والأسود !

للأديب الفرنسي الخالد « ستندال »

الحب العنيف ... بين الظهر والفجر !

● رأينا في قصة « مدام دي كليف » الحب المنطوى على البطولة والشهامة وفي قصة جان جاك روسو الخالدة « جوليا » . الحب العنيف « الرومانتيكى » .. ثم رأينا الحب المحرم الفاجر ، وقد صورته الجنرال « دي لا كلو » في قصة « العلاقات الخطرة » وخرجنا من القصتين الأخيرتين ، بأن الحب الحرام يولد مللا وكآبة ، في حين أن الحب العنيف « يغالى » في تجاهل الواقع ، وحفائق اللحم والدم !

وفي هذه المرة ، يكشف لنا الأديب الفرنسى الخالد الذكر « ستندال » عن وجه رابع من وجوه الحب يجمع بين النوعين : العنيف والفاجر .. والرومانتيكى والحرام ! .. بين هيام « فرتر » وأشجانه ، وجرأة « دون جوان » وصراخته ..

إنه وجه الحب « العنيف » ! وكفى

المؤلف

● إمام هذا الوجه من أوجه الحب هو «هنرى بيل» . المعروف في الأدب باسم «سندال» . وقد ولد في مدينة (جرينوبل) بفرنسا سنة ١٧٨٣ . من أب مترمتم قاسى القلب ، ذى عقلية مادية وخلقة قبيحة .. وأم رقيقة القلب ، بارعة الجمال . فشب الفتى يحقت أباه أشد المقت ، ويحب أمه أخلص الحب ! .. وامتدت عواطفه فشملت أسرتهما ، فأبغض أسرة الأب ، وأحب أهل الأم .. وكان جده لأمه - «جانيون» - أستاذاً للفلسفة ، وخالته «اليزابيث» شديدة الاعتزاز بالشرف على طريقة نبلاء الأسبان ، فأورثته هذا الاعتزاز ، أو على حد تعبيره : «أنها قد كونت قلبي .. كان خلقها زبدة الشرف ، فنقلت إلى طريقتهما في الإحساس مما كان سبباً في ارتكابى سلسلة من الحماقات السخيفة ، بدافع من مراعاتى لمقتضيات ذلك الخلق السامى ! » .. أما خاله «رومان» فقد كان على العكس مستهتراً ، فلقنه فنون الحب العابث الذى كان يدين به !

لكن «سندال» نشأ طفلاً مضطهداً ، سواء من أسرة أبيه ، أو من معلمه الخاص الذى اختاروه له ، والذى كان كتلة من النفاق والرياء . الأمر الذى جعل التلميذ ينشأ معتنقاً فكرة راسخة هي أن الإنسانية تتألف من فريقين متميزين : فريق «الخبثاء»

المرائين ، الذين يتحدثون دائماً عن الفضيلة ، وهم على خلق وضيع ..
 وفريق « ذوى النفوس الكريمة » الذين تفيض قلوبهم حباً وخيالاً
 وشعراً ، وإن كانوا يصطنعون السخرية فى حديثهم ، خشية أن
 يتهموا بالرياء ! .. وقد تغافم بغضه للفريق الأول ، وحبه للثانى ،
 حتى بلغا درجة العنف التى تنسم بها كل عواطف الطفولة !

لكن العنف العاطفى لازم « ستندال » بعد مرحلة الطفولة ..
 صار قديراً على أن يتمى « الموت » للذين يكرههم ! .. فلما نشبت
 الثورة وحل عصر الإرهاب ، اعتنق المبادئ الجمهورية المتطرفة ،
 لا لشيء إلا لأن أباه كان ملكياً متطرفاً ! .. وذات يوم دخل عليه
 أبوه يحمل نبأ إعدام « لويس السادس عشر » ، قائلاً فى غضب :
 « لقد فعلوها قتلوه غيلة ! » ويحدثنا « ستندال » عن شعوره
 لحظتها بقوله « لقد جرفتني موجة من الفرح الطاغى ، لم أحس
 لها مثيلاً فى حياتى ! » .. وهو شعور قاس ولا شك ، لكن
 « ستندال » كان دائماً يعجب بروح العنف المتوارثة عن عصر
 النهضة ، إعجاباً ليس مرده إلى طبيعة شريرة فيه ، وإنما مرده إلى
 احتقاره للضعف والتسامح اللذين عرف بهما جده « جانيون » ،
 مما جعله لا يحس بالأخطاء ، ولا يحاربها ! ..

ورغم أن « ستندال » أثبت فى مناسبات عدة أنه ضعيف فى
 حبه ، فإنه كتب يقول : « الضعفاء فى نظرى مجانين » .. وفى
 شخصيات قصصه أمثلة كثيرة تعبر عن هذا العنف الذى اتصف

به .. فن هذه الشخصيات من يقتل حبيته ، ومن تدس السم لعدوها .. وأخرى تقبل شفتى حبيبها الميت ! وثالثة تحب لصاً ، ثم تصير بدورها من الخارجات على القانون ! .. وكما تتضمن قصصه أمثلة من روح الشرف الأسباني ، فلإنها تتضمن أيضاً نماذج من عنف « مكبافيلي » و « بورجيا » وغيرهما من أشرار إيطاليا في القرن الخامس عشر ..

هذا عن قصص « ستندال » أما عن شخصه ، فإن هذا العنف لم يجد له صدى في تصرفاته ، ولعل هذا ما جعله ينشد متنفساً له في رواياته ! .. وأغرب من هذا أن « ستندال » كان برغم ميله إلى القوة واحتقاره للضعف .. خجولاً ! .. لا يلتقى بامرأة جديدة ، وتقتضى الظروف أن يقترب منها ، ويختلط بها ، حتى يرتجف في البداية .. كما لو كان يقترب من حافة هاوية !

فرتر .. ودون جوان !

● وقصص « ستندال » تجيب على تساؤل حائر طالما نساءه الناس ، وهو هل يسلك الرجل إزاء المرأة مسلك « فرتر » ، أو مسلك دون جوان ؟ .. مسلك العاشق الوهان الذي يحب ويتأوه ، أو مسلك الغازي الفاتح .. الذي يتميز بالشجاعة ، والصراحة ، والدعابة ، والحيوية ، وخفة الروح ؟

إن شخصية « ستندال » - وشخصيات رواياته - تجمع بين

المسلكين .. والمجتمع - في قراره - يحترم « الدون جوان » ، وإن
وبنحه ولامه في الوقت الذي يسخر فيه من العاشق الولهان الذي
يتألم ويتأوه ! .. لكن مخزية المجتمع لا تقاس إلى جانب السعادة
الجارفة التي يستمتع بها الحب الذي من هذا الطراز .. فهو يبنى
قصوراً في الهواء - أو في « أسبانيا » كما يجري المثل - قصوراً
تسكنها السعادة العذبة إذ أن الحب على طراز « فرتر » يفتح
النفس لجميع الفنون والمشاعر الخيالية العذبة ، وللاستمتاع بالدنيا
إلى أقصى حد .. أما العاشق « الدون جوان » فيعامل النساء معاملة
« الأعداء » ، إذ الحب في نظره نوع من الحرب ! فهو لا يتحدث
إلا عن « الانتصارات » والهزائم ولا يكاد يستمتع بجزء من
مسرات الحب الحقيقية التي يستمتع بها الآخر . فالدوق « دى ريشليو »
- مثلاً - لم ينعم قط بلمحظة من لحظات السعادة الخالصة التي ذاقها
« جان جالك روسو » أثناء خلواته مع مدام « دوديتو » في الغابة ! ..
ولقد ظل « روسو » طيلة حياته يتذكر لمسة خفيفة لثوب امرأة ،
أو ضغطاً رقيقاً على يد ناعمة ، بينما كان « ريشليو » إذا لقي امرأة ،
يعجز عن أن يتذكر ما إذا كانت يوماً خليلته له أم لم تكن ! ..

سعادة « الدون جوان » محض نشوة حسية قصيرة خاطفة ،
يخالطها شيء من الزهو ، أو هي أشبه بمتعة رياضة الصيد ! ..
أما سعادة الحب الولهان ، فلأنها تغير وجه كل شيء وتجعله جديداً ،
حياً ، مثيراً ! .. بل إن سعادة « الدوق دى نيمور » حين صارحته



سعادة ، الدون جوان ، محض نشوة حسيه قصيرة خاطفة ،
يخالطها شيء من الزهو ، أو هي أشبه بمتعة رياضة الصيد ! .

« مدام دى كليف » بأنها نجبه ، لتفوق سعادة « نابليون » عند انتصاره في معركة « مارنجو » ! .. والخليفة التي يظل الرجل ثلاث سنوات يسعى إلى الظفر بها ، هي الخليفة بكل معنى الكلمة .. هي التي يقترب منها المحب الولهان وهو يرتجف ! .. وهذه لا تخشى أن يزهد الرجل فيها قط .. أما تلك التي يظفر بها « الدون جوان » بسهولة ، فإنه لا يلبث أن يتشاءب في وجهها بعد وقت قصير ، كما يتشاءب المتصرون !

وقد ظل « سندان » طيلة حياته يتأرجح بين شخصيتي فرتر ودون جوان ، ويحلم بامرأة سامية النفس تبادله عاطفته .. لكن حلمه لم يتحقق ، فعاش أبداً يحب الحب ! .. كتب مرة يقول : « لقد طالما كان الحب بالنسبة لي أهم شيء .. بل الشيء الوحيد في حياتي ! » .. وفعلًا خصص للحدث عنه كتاباً كاملاً سماه « في الحب » ، كما خصص لتحليله جميع رواياته ، ودقتر يومياته ..

المرأة تفكر في الحب أكثر من الرجل

● والحب في نظره نوعان الحب العاطفي ، والحب الجسماني لكن الأول وحده هو الحقيقي ، وهو يولد ويتطور طبقاً لقانون التطور التالي :

١ - في البداية يولد الإعجاب

٢ - ثم يقول الشخص لنفسه : « أية متعة في أن أقبل هذه

المرأة وتقبلني ! » ..

٣ - ثم تتلو ذلك مرحلة الأمل ..

٤ - وبعد الأمل يولد الحب ..

٥ - وعندئذ تبدأ مرحلة « التبلور » ، وهى التى يسبغ الشخص فيها على محبوبه ألف صفة وصفة من صفات الكمال .. ونحدث فيها داخل ذهن الحب عملية أشبه بالتى تحدث إذا وضعت غصناً مجرداً من أوراقه فى منجم للملح وتركته فيه شهرين أو ثلاثة ، فإنه يكتسى بعدها بطبقة من البلورات البراقة كالмас ، يخفى تحتها الغصن الحقيقى .. وهكذا يخفى شخص المحبوب الحقيقى تحت طبقة من الصفات الوهمية الخلابه التى يسبغها عليه الخيال غيائياً ، يوماً بعد يوم ! .. وأثناء هذه المرحلة ، يخطر ببالك شخص المرأة الحبيبه فى كل مناسبة ، فإذا تحدث أمامك شخص عن إيطاليا مثلاً ، وثب إلى ذهنك فوراً هذا الخاطر : « ما أسعدنى لو قدر لى أن أذهب إلى إيطاليا بصحبة هذه المرأة ! » .. وإذا كسرت ذراعك فى حادث ، كان أول ما يحول بخاطرك « ما أجمل وأعذب أن تمرضى هذه المرأة ! » .

٦ - ثم تتلو مرحلة التبلور مرحلة الشك فىسائل الحب نفسه « ما الذى يثبت لى أنها تحببى ؟ وأنها ستظل تحببى ؟ » .. فإذا قتلت المحبوبة فى قلب محبها بذور هذا الشك وأمتته على حبها أكثر من اللازم ، تعرض حبهما للاختناق بأشواك السأم والملل ، وإن ضاعفت الثقة المتبادلة من متعته وجاذبيته ..

والتبلور أسرع عند المرأة منه عند الرجل ، لأنها تملك وقتاً للتفكير في حبها أكثر مما يملك هو : فهي تفكر في حبيبها أثناء جلوسها إلى آلة الحياكة ، أو وهي تنسج « التريكو » وأشغال الإبرة ، التي تشغل يديها دون فكرها ! أما الرجل فلو فكر في حبيبته وهو يقود سيارته لعرض نفسه للموت ، أو لقضاء بضعة أشهر في السجن !

ويرى « ستندال » - خلافاً لما يراه بعض الكتاب المعاصرين وعلى رأسهم « برنارد شو » - أن الرجل هو الذي يهاجم - في الحب - والمرأة تدافع عن نفسها .. هو يطلب ، وهي ترفض .. وهو الذي يكون شجاعاً في النهاية ، بينما تتحصن هي وراء خجلها !.. لكن هذه المقاييس تختلف الآن عنها في القرن الثامن عشر ، بل والتاسع عشر .

غراميات « ستندال »

● والسؤال الذي يدور بالخطاير بعد هذا هو : هل ذاق « ستندال » نفسه هذا اللون من الحب العنيف الذي أذاقه أبطال قصصه ؟

كانت أول امرأة تعلق بها قلبه ممثلة جميلة في أحد مسارح (جرينوبل) تدعى « ميموازيل كايلى » .. لكنه كان حباً ساذجاً كحب طلبة المدارس ، فقد كان « ستندال » وقتئذ في السادسة عشرة . فكان يتردد على المسرح ويصفق لها ، وإذا سمع أحداً

يذكر اسمها ارتجف كريشة في مهب الريح .. وفي المرة الوحيدة التي قابلها فيها - بمحض المصادفة - كاد يغشى عليه !

وحين تركت « ملموازيل كابل » مدينة (جرينوبل) إلى (باريس) حاول « ستندال » أن يعزى نفسه بالانشغال بأخت أحد أصدقائه ، وتدعى « فكتورين بيجيليون » .. لكنه لم يلبث أن غادر جرينوبل إلى باريس ثم إلى (ميلان) ، حيث أحب امرأة جميلة تدعى « انجيلا بيتراجروا » ، لكنه لم يجرؤ على مفاتها بحبه !

ثم عاد إلى باريس ، حيث عرف ممثلة أخرى تدعى « ميلاني لوازون » . وهو يصف في يومياته خلوة له معها : « ذهبت لزيارة « ميلاني » وأنا أرتجف . وكلفتني بإشعال النار في المدفأة ، فسررتني هذه المهمة ، الدالة على رفع الكلفة . وبقينا معاً حتى الساعة الثانية . كنت سعيداً جداً ، ووددت لو أحست هي بمثل سعادتي ! .. كانت رائعة وهي تسرد لي أقاصيصها الطريفة ، وقد جلست بجانبها ، أحرق في عينيها ، ويدها في يدي .. ولا بد أنها أحست بمدى الانفعال الذي أثارته روحها الرقيقة في ! وأن الفرح والغبطة اللذين أظهرتهما حين رأيتني ليثبتان أنها تحبني ! .. أما أنا ، فحسبي أن في وحده هو الذي كان يتكلم .. بينما كان قلبي مشغولاً ، يشعر ! » .

وبعد بضعة أيام كتب يصف زيارة أخرى « إلى عائد توأ من عند « لوازون » ، ويخيل إلى أني لم أكن قط رائعاً مثلما كنت اليوم ، وأنا مرتد مسترني الأنيقة ورباط رقبي الفاخر ، وقبعتي

الجديدة ، ولساني منطلق لا يتلعم .. لقد أشرقت روحي من خلال حديثي فأنستها قبح وجهي ، واشتركت أناقة ثيابي في إخفاء ملامحي المنفرة ..

وظفر « ستندال » بالمشكلة في النهاية .. وحين سافرت إلى (مرسيليا) عام ١٨٠٥ ، لحق بها هناك لكن ظروفه اضطرتة بعد حين إلى الارتحال إلى باريس ... وهناك اشتبك في مغامرة غرامية جديدة مع « مدام دارو » ، زوجة الرجل الذي كان يعتبر رب نعمته ! .. ثم عاد مرة أخرى إلى (ميلان) ، حيث التقى بمحبوبته القديمة « انجيلا بيتراجروا » ، وكانت قد تزوجت ، فاعترف لها بحبه القديم .. وحين استطاعت أن تذكر - بصحيفة - الشاب الذي اعتادت أن تطلق عليه في الماضي لقب « الصيني » ، سأله مستغربة : « ولماذا لم تصارحنى بحبك يومئذ ؟ » .. فلم يحرم جواباً !

وبعد أن اتصلت العلاقة بينهما فترة اكتشف أنها تخدعه بلا تورع ، فهجرها نهائياً ، بعد أن ظل قلبه عالقاً بها - غيابياً - من سنة ١٨٠٠ إلى ١٨١١ ، وقد وصفها في يومياته بأنها كانت سمراء رائعة ، حادة الشهوات .. وظل دائماً يعتبرها « التحليلة المثالية » ! وعلى أثر انفصاله عنها اشتبك « ستندال » في غرام جديد - عذري - مع من تدعى « ماتيلد دمبوفسكا » ، فألمده غرامه هذا بفيض جديد من المشاعر العذبة الرائعة .. وأضاف اسمها إلى قائمة

محبوباته الإحدى عشرة ، اللواتى راح يقسلى برسم حروف أسمائهن على الرمل بعصاه حين بلغ سن التحسين !

لكن اللاتى يادلنه الحب من هذا العدد الكبير من النساء كن قلة ، أما الباقيات ، فيتحدث عن عواطفهن نحوه بصراحة وتواضع حيد ، شأن العشاق الحقيقيين . والواقع أنه كان متواضعاً حتى فى اختياره ، فإن خليلات هذا العاشق الرقيق كن جميعاً دون المتوسط على الأقل من ناحية الجمال .. إذ أنه لم يكن يعنى بجمال الشكل قدر عنايته بجمال الروح .. وقد وجد ضالته من هذه الناحية ، فكتب يصف « ميلانى لوازون » بأنها « ليست جميلة .. لكنها سامية » ، ووصف أخرى بقوله : « لم أكن أتصور أن مثل هذا الخلق الجميل يمكن أن يوجد على الأرض ! » .. والواقع أن أولئك النساء اللواتى ملأن حياة « هنرى بيل » الإنسان ، هن اللواتى ملأن فيها بعد صفحات قصص « ستندال » الروائى

فلنستعرض موكبهن استعراضاً سريعاً :

« مدام دى رينال »

● قسم « ستندال » بطلات رواياته إلى فريقين : فريق تمثله المرأة الرقيقة العاطفية المتدينة ، التى تكتم عواطفها ، والتى يحب الرجل لذة فى قهرها .. أو بعبارة أخرى المرأة الفاضلة التى « تغلب على أمرها » .. وهى التى كان « ستندال » يتمنى دائماً أن يحب واحدة من طرازها .. أما الفريق الآخر فتمثله المرأة التى كان

« ستندال » يصير إليها ، لو أنه خلق امرأة ! .. أى المرأة التى لها صفاته وطباعه . وقد جمع « ستندال » بين الفريقين فى شخصيات قصته الكثرى : « الأحمر والأسود » ، فجعل « مدام دى رينال » تمثل الفريق الأول ، و « ماتيلد » تمثل الفريق الثانى ..

تجرى حوادث القصة فى الفترة بين سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٣٠ .
 وحين تبدأ ، نرى « جوليان سوريل » يدخل بيت « ميسو دى رينال » كعلم لأولاده . و « جوليان » هذا شاب « ابن فلاح » شجاع ، مرهف الحس ، معتز بكرامته ، شديد التحمس لنابليون ..
 أما والد تلاميذه - وصاحب الضيعة التى يقع فيها البيت ، فى مقاطعة « دوفينه » - فرجل جامد العواطف ، ماضى التبعة ، ينظر إلى زوجته بترفع وتعال ، ويعتبر أن واجبها يحتم عليها أن تحبه وتكرس حياتها من أجله ! .. ونجد هذه الزوجة امرأة قاضلة ، لكنها لا تحب زوجها ، بسبب معاملته إياها على هذه الصورة المرذولة .. وهى تعتقد أن الرجال جميعاً من طرازه ، مخفّاء ، لا يقيمون وزناً لغير الأمور المادية ، والتسابق على التفوق ، الحصول على الأوسمة والنياشين !

وحين تعلم الزوجة نبأ المعلم الذى استدعاه زوجها لتعليم أولادها ، يزعجها الأمر أشد الإزعاج ، وتكون فى ذهنها صورة كريمة للمخلوق الذى استؤجر كى يعنف أولادها ويوبخهم ، لا لشيء إلا أنه يتقن اللاتينية ! .. لكنها تسر حين تكتشف أن

« جوليان سوريل » ليس أستاذاً متعجرفاً ، وإنما هو شاب متواضع
 خجول ، أشبه بفتاة متنكرة في ثياب رجل !.. أما هو فيبطن لها
 شعوراً بالبغضاء ، لمحض أنها زوجة رجل يرى ، ويفسر صمتها
 بأنه من أدلة كبريائها !.. وهكذا تسير الأمور في القصر الريني في
 البداية سيراً عادياً ، ولو كانت « مدام دي رينال » امرأة باريسية ،
 أو لو كانت من قارئات القصص ، لأدركت بمجرد وقوع بصرها
 على « جوليان » نوع الخطر الذي قد يعرضها له مجيء هذا الشاب
 إلى البيت . لكنها كانت - كما أسلفنا - امرأة لم تعرف الحب من
 قبل وبفضل جهلها هذا كانت تحس سعادة خالصة في حضور الشاب ،
 فتركت نفسها تنجذب نحوه دون أن تشعر ! حتى اكتشفت
 الحقيقة الرهيبة ذات يوم فجأة ، حين أبدت وصيفتها « ميلا »
 إلى الزواج من « جوليان » عندئذ فقط تنهت الزوجة الفاضلة
 إلى اتجاه قلبها ، فساءلت نفسها جزعة : « هل يمكن أن يكون هذا
 الذي أحبه نحوه .. هو الحب ؟ ! » وأشعرها اكتشافها بالقلق ،
 وبالسعادة في الوقت نفسه !.. وتغير في نظرها وجه الريف المحيط
 بها ، فاكتسى ثوباً جديداً من الضياء والسناء .. لم يعد هناك شك
 في الأمر : إنها « تبلور » جوليان في خيالها ، وتسبغ عليه صفات
 الكمال والفتنة .. أما هو ، فلا يكاد يوقن من عاطفة المرأة نحوه
 حتى تغلو المسألة في نظره مسألة زهو وخيلاء ، أكثر منها مسألة
 حب !.. فيجعل همه أن يكمل السعى ، ويظفر بالأرستقراطية
 العريقة التي أوقعها الأقدار في هواه ..

و ذات ليلة - وقد جلسا في الحديقة ، في الظلام - تلمس
 يده عفواً يدها المستريحة على حائز المقعد .. فتسحب يدها بحفلة ..
 وإذا ذلك يعقد الفتى عزمه على أن يمهّد الجوللمسة التالية بحيث لا يعقبها
 انسحاب ولا إجحاف !

وفي الليلة التالية يأتي إلى الحديقة وفي عينيه نظرة المستقبل على مقاتلة
 عدو ! ولا يكاد يهبط الظلام ، حتى يتناول يد «مدام دي رينال» ..
 فتسحبها فيتشبث بها من جديد ! وتبذل المرأة محاولة أخيرة كي
 تسترد يدها من يده . لكن اليد تبقى أخيراً في اليد !
 ويغمر الشاب طوفان من السعادة ، لا لأنه يحب المرأة ..
 وإنما لأن عذاباً رهيباً قد انتهى ، وأعقبه شعور بالانتصار ! .. إنه
 ما يزال في مرحلة « الحب من أجل الزهو » .. أما «مدام دي رينال»
 فهي على العكس منه ، لا تستكين يدها في يده حتى يشل ذهنها
 عن التفكير ، وتترك تيار الحياة يحملها على متنه .. وحين يضطرها
 ظرف عارض إلى أن تسحب يدها ، تعود فتعطيه إياها بغير احتجاج !
 ويكون طبعياً بعد ذلك أن يمدّه تصرفها هذا بالمزيد من الجرأة !
 وتساؤل المرأة نفسها حائرة « ماذا ؟ .. هل يمكن أن أكون
 عاشقة ، أنا المرأة المتروجة ؟ ! .. إنني لم أحس يوماً نحو زوجي
 شيئاً من هذا الجنون الأسود الذي يجعلني لا أريد أن أبعد «جوليان»
 عن خاطري ! .. ثم إنه فتى يملأ نفسه الاحترام والتوقير لي .. كلا
 إن هذا إلا محض جنون عارض سوف ينتفضي ! » .

لكنها لا تراه مرة أخرى حتى تمتلكها من جديد نشوة الفرح
السحري التي طرأت عليها في الأسبوعين الأخيرين !.. ولما لم تكن
قد قرأت من قبل أية قصة من قصص الحب ، فقد كانت تلك
المشاعر كلها جديدة عليها ، لا تعكر صفوها ظلال الحقيقة ،
ولا احتمالات المستقبل .. فتصورت نفسها تنعم بهذه السعادة الدافقة
بعد عشر سنوات ، مثلما تنعم بها الآن !

الجنة والجحيم .. في المخدع المعطر

● ويلعب « جوليان » دور « الدون جوان » من قبيل الواجب ،
متدفعاً وراء شعوره بالزهو الذي يرغمه على أن يكون جسوراً ،
فيهمس لها « سيدتى سوف آتى إلى مخدعك الليلة ، في الساعة
الثانية صباحاً ! » .

ويرتجف خشية أن توافق !.. وحين تدق الساعة في جوف
الليل دقتين ، يأخذ سمته إلى غرفتها ، يقوده إحساسه المضنى بأن
عليه واجباً نحو كبريائه يجب أن يؤديه !.. ويدخل المخدع المعطر ..
وهناك ينسى أن عليه واجباً ، ولا يعود يذكر إلا أن عدم الفوز
بهذه المرأة الشبيهة يكون تعاسة كبرى !

وحين يغادر المخدع بعد ساعات ، يغادره وليس أمامه مزيد
يطمح فيه أما هي فيخلفها وراءه سعيدة سعادة لا تكاد تصدق ،
عاجزة عن مغالبة دهشتها من أن هذه السعادة كان لها في الماضي
وجود ، غفلت هي عنه !

وبمضى الأيام يتحول شعور « جوليان » من حب باعته مجرد الزهو ، إلى حب عاطفى عارم جارف .. فقد كان شاباً ، وكانت هى فاتنة ، فلم يكن بد من أن يسلم الزهو سلاحه ويخفض جناحه ! .. وتغدو حياة المرأة جنة وجحيماً جنة حين ترقد تحت قلميه .. وجحيماً حين يتعذر عليها أن تراه ! .. لكن تبكيت ضمير الزوجة الفاضلة التقية لا يفتأ يلاحقها ويضطهدها ، فتقول لحبيبها وهى تذعن له مستضعفة

« لقد كتب على الهلاك الذى لا نجاة منه أنت شاب ، وقد استجبت لإغرائى ، فالسواء تستطيع أن تغفر لك أما أنا فقد حق على الهلاك واللعنة .. علامة ذلك عندى أنى خائفة ! ومن لا يخاف أمام عتبة الجحيم ؟ .. لكنى بالرغم من ذلك لست نادمة ، ولو عاودتنى الظروف نفسها ، لارتكبت ما ارتكبت مرة أخرى ! .. »

ويلغظ الخدم بفراغ سيدتهم .. ويتلقى الزوج المخدوع من أعدائه خطابات بغير توقيعات ، تنبيه إلى ما يجرى فى بيته ! .. لكن الزوجة تظهر بديهة حاضرة فى الدفاع عن سعادتها ، وتأمين مركز حبيبها فإن المرأة الفاضلة كثيراً ما تظهر جراءة فائقة ، وحيلة واسعة ، حين تتذوق متعة الحب الصحيح !

أما « جوليان » نفسه فيدركه الخوف والفرع من افتضاح أمره فيحاول كبح جماح تهورها : « إن الحب يعميك ! ولئن كنت قد أنقذت الموقف اليوم ببراعة رائعة ، إلا أن الحيلة تقتضينا أن لا نفع

في الفخ .. قالبيت عامر بأعدائنا .. ومن الخير أن لانتلقى الليلة ! ..
لكنها تجيبه في اعتداد المرأة ذات الأصل العريق : « إذن فأنت
لا تملك حتى الشجاعة ! »

ويلتقيان .. ويقعان في الفخ .. فيجبر الزوج العشيق على مغادرة
البيت فوراً .. وبذلك ينتهى القسم الأول من القصة .

« ماتيلد دى لامول »

● فإذا كان القسم الثانى فقد انقضت على رحيل « جوليان »
إلى باريس سنوات ، صار بعدها سكرتيراً لنبيلى يدعى المركيز
« دى لامول » . وهنا يلتقى بالبطله الثانيه للقصة وهى « ماتيلد » .
ابنة المركيز .. !

و « ماتيلد » شقراء رائعة الجمال . لكن « جوليان » حين برآها
لأول مرة لا يعجب بها ، إذ يخجل إليه أن عينيهما القاتنتين تخفيان بروداً
مثيراً ! .. وهى قد تلقت تعليماً دينياً . وتربت تربية محافظة .
لكنها تقرأ « فولتير » وهى تحتقر شبان طبقها الذين يحومون
حولها ، والذين يقلون عنها ذكاء . لكنها تتوسم فى « جوليان »
سكرتير أبيها أنه على خلاف الشبان الذين عرقهم فتتودد إليه !
ويهمس الفتى لنفسه « لشد ما أمقت هذه الفتاة الفارعة
القامة ! » وتظل نظرتة إليها صارمة لا تلين . الأمر الذى يدهش
« ماتيلد » ويشير فضولها ، وغيظها ! فهى تستشف من نظرتة أنه
يحتقرها ، ومع ذلك لا تقوى على أن تحتقره ! .. أو أن تختمل

إغضاءه المتواصل . وعدم استجابة عينيه لعينها بل إنها لتخاف نظره .. بينما يهمس هو لنفسه « ما أبعد الفارق بينها وبين التي فقدتها ! لقد كانت « مدام دي رينال » طبيعية في حركاتها وتصرفاتها . حتى لقد كنت أفهم أفكارها قبل أن تفصح عنها ولم يكن بفاسمني قلبها غير أطفالها . وهو أمر طبيعي - برغم ما قاسيت منه ! - فيألى من أحق . لم يقدر النعمة التي كان يتقلب فيها حتى قدرها ! وما أوسع الشقة بين تلك المرأة . وبين هذه الجوفاء المتعالية التي لا تحب غير نفسها ! »

تطاردته بحبها .. حتى يدعن

● لكن « ماتيلد » كانت تمنح في مطاردته كلما أمعن هو في بروده ، وفي « احترامه » لها ! فبدأ يتراجع عن عناده تدريجياً . وينتبه إلى محاسنها . فيناجى نفسه « يا إلهي ، لكم هي جميلة ! » ثم يسائل نفسه وقد استيقظ فيه طموحه إلى هذا « المجد » « ترى .. أمي تحبني ؟ » وأخيراً تصارحه الفتاة ذات يوم بحبها ، فيغبط نفسه . « هذا أنا ، الفلاح الفقير . أسمع الاعتراف بالهوى من فتاة أخرى عريقة ! »

ويعرف « ماتيلد » تيار العاطفة العنيفة . فتضرب لجوليان موعداً ليلياً في غرفتها التي لا يستطيع بلوغها إلا إذا أسند سلماً إلى الحائط الخارجي وتسلفه إلى نافذتها !.. وقد يفاجئه المركب

— أو أحد حراسه — أثناء هذه المحاولة بل قد يقتل لكنه مع ذلك يقدم على المجازفة ، وبصير عشيق « ماتيلد » !

غير أنه يدهش حين يتبين أن حظوته بماتيلد لا تدخل إلى نفسه مروراً ونشوة ، ولا تبعث فيه أى إحساس بالسعادة وعبثاً يحاول استدرار هذه السعادة بالتفكير المنطقي . فهو لا يفتأ يغبط نفسه على هذا الفوز بتقدير وإعجاب هذه المخلوقة العريقة المتكبرة .. ويمده هذا التفكير بشيء من فرحة الزهو ، لكنه يظل محروماً من الحب المبارك الذى تذوقه مع « مدام دى رينال » !

المشورة القاتلة

● ويصدم زهوه ، وشعوره بلذة الانتصار - مشاعر ماتيلد .. فتحدث نفسها : « إذن فهو يحب أنه قد صار سيدى ؟ هذا يكفى كى يجعل الحب كريهاً ! » وهكذا تمضى أيام يتبادل فيها الاثنان - دون أن يدركا - شعوراً بالكراهية الخفية لكن شبابهما لا يلبث أن يفرض كلمته . فتدعن كبرياؤهما صاغرة !

ويبلغ الحب بالحبيبين أخيراً مرحلة السعادة المنشودة فتقص « ماتيلد » شعرها . تضحية منها لأجل حبيبها . وإظهاراً لعنف العاطفة المجنونة التى تكنها له .. فيضطر أبوها المركيز إلى الموافقة على زواجهما ..

غير أن الحظ العاثر لا يلبث أن يوحى إلى المركز بأن يستعلم من « آل رينال » عن ملك الشاب أثناء إقامته في قصرهم .. وتستشير « مدام دي رينال » قسيسها ، فيشير عليها بذكر الحقيقة كاملة فلا يكاد خطابها يصل إلى والد « ماتيلد » حتى يعدل عن موافقته على الزواج !

تدفع حياتها ثمناً لوشايتها

● ويشتل حقد « جوليان » على « مدام دي رينال » التي أفسدت - بغيرتها ! - زواجه فيسافر إلى حيث تقيم ، ويدخل الكنيسة التي تصلى فيها ثم يصوب مسدسه عليها ، ويطلق النار !

لكنها تنجو من الموت وتزوره في سجنه كي تواسيه ! وفي محنته يدرك أنه لم يحب يوماً سواها

ولا تمضي على إعدامه بالمقصلة ثلاثة أيام ، حتى يقتلها الحزن عليه فتموت وهي تعانق أولادها !

وأما « ماتيلد » المفجوعة ، فتتقدم من المقصلة ساعة الإعدام .. ولا يكاد رأس حبيبها يسقط في السلة ، ويرفعه الجلادين يديه ، حتى تناوله منه .. وتطبع على الشفتين الهامدتين قبلتها الأخيرة !



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق اندريه موروا

هـ - زنايق الوادي

نساء بلزاك اللواتي من لحم ودم
ونسأوه اللواتي من حبر وورق !

بين حب الكهولة ... وحب الشباب

● رأينا فى قصة « جوليا » كيف هرب « روسو » ،
 الخيالى ، من عصره ، ليصور الحب كما يريد أن يكون
 الحب العفيف ! .. ثم رأينا فى قصة « العلاقات الخطرة »
 كيف صور الجنرال « لاكلو » الحب الحرام الفاجر
 وعرفنا بعد ذلك الحب العنيف كما صور « ستندال » فى
 قصة « الأحمر والأسود » .. الحب العنيف فى طهره وفجوره
 معاً ! .. وفى هذه المرة ، نشهد خلال حياة « بلزاك » ،
 وخلال روايته المشهورة « زبقة الوادى » ، حب الشاب
 الخجول المحروم ، لامرأة فى سن أمه ! ثم حيرته حين
 يعلق قلبه بامرأة أخرى تصغرها ، فى وقت تقترب فيه
 العشيق الأولى - العجوز - من حافة الأبدية !

ملهمات الأدباء

● تحتل قصص « بلزاك » منزلة رفيعة هامة في تاريخ الحب في فرنسا ، بحيث يصعب دراستها في فصل واحد قصير ، خاصة وأن الشخصيات النسائية التي خلقها ، من الكثرة والتباين بدرجة تدعو إلى العجب وإذن فخير سبيل للإحاطة بها هي المقارنة بين بطلات قصصه وبين النساء اللواتي أوحين له بهن .. وهي مهمة عسيرة ، لأن التغييرات والتعديلات التي تطرأ على الواقع في ذهن الفنان الخالق غريبة ومعقدة لكن المؤلف يعتمد أحياناً إلى فك رموز التفاعلات الخفية التي أصابت الواقع فأحاله فناً مثال ذلك ما نجده في مفكرات « مارسيل بروست » من إشارات ترشدنا إلى أن « لورا هيان » هي المرأة التي أوحى له بشخصية « أوديت دي كريس » الروائية وإن شخصية « أدريان دي جرمانت » قد استمدت جمالها من « الكونتس جريفول » ، وحكمتها من « مدام سترافوس » ، وبديتها الحاضرة من « الكونتس دي شيفنيه » إلخ كذلك نجد في مسودات « الزنبقة الحمراء » - لأناتول فرانس - الخبط الذي يقودنا إلى التعرف في شخص « مدام أرمان دي كايافيه » على المرأة التي انتحلت على الورق شخصية « تيريز مارتان بليم » !

« أما عند « بلزاك » فنحن نقين بين بطلات قصصه ملامح صديقيته « جورج صاند » و « ماري داجول » .. كما نستطيع أن

نطبق شخصية « مدام دى مورسوف » بطلقة قصته الكبرى « زنبقة الوادى » على عشيقته الأولى « مدام دى برنى » وشخصية « الدوقة دى لانجيه » على عشيقته التالية « الدوقة دى كاسترى » .. بحيث يمكن الجزم بأنه لو لم يعرف هذه وتلك فى حياته ، لما كتب روايته الرائعتين

وعلى هذه الوتيرة يبدو من الممتع أن نتابع المقارنة بين نساء « بلزاك » اللواتى من لحم ودم ، ونسائه اللواتى من حبر وورق !

« بلزاك » الرجل

● عندما نقرأ صور الطفولة فى قصتى « زنبقة الوادى » ، و « لويس لامير » - التى يؤكد « بلزاك » أنها انعكاس لطفولته هو - نجدها حافلة بالآلام برغم أن « بلزاك » لم يكن بالطفل الذى تحمل حياته بأسباب الشقاء ، إذا قيس بطفل مثل « ديكتز » كان يحلل طفولته العار والفقر معاً ! .. فعندما ولد « بلزاك » عام ١٧٩٩ كان أبوه يحتل مركزاً محترماً وينعم برغد العيش. ولكنه كان متزوجاً من امرأة تصغره باثنتين وثلاثين سنة ، هى « لورا سالومبييه » التى يمكن اعتبارها المسئولة عن تعاسة ابنها « بلزاك » فى طفولته فقد كانت ذات حسن رائع ، وثقافة ممتازة ، ومزاج مترف ، لكنها قاسية القلب تميل إلى العبث ، حتى لقد أثارت حول سمعتها الشائعات والأقاويل بين جيرانها ، فنسبوا

أبوة طفلها الثانى « هنرى » إلى غير زوجها ! .. وقد احتفظت فعلاً لهذا الطفل الأصغر - ابن الهوى ! - بالقدر الأكبر من حنانها ورقتها ، فى الوقت الذى كانت فيه تحرص دائماً على إبعاد ابنها الأكبر « أونوريه » عن البيت ! .. ورغم ذلك فإن هذا لم يحقد عليها أو يحمل ضغناً ضدها بسبب هذا كله ، بل ظل يكن لها حباً بنوياً كاملاً ، يخالطه شئ من الخوف لازمه حتى كبير ، فصار وهو رجل ناضج لا يقترب منها بغير أن يرتجف .. وقد أشار أكثر من مرة فى قصصه إلى ذلك الشعور بالحاجة إلى الحماية النسائية ، الذى يحسه أولئك الذين حرموا حب الأم الصادق

من الضعف والكسل .. إلى الصحة والمرح

● ثم ألقى « أونوريه » من سن الثامنة إلى الرابعة عشرة بمدرسة داخلية فى (فندوم) ، فكان خلال تلك الفترة أكسل التلاميذ وأقلهم نشاطاً وأكثرهم شروداً وتأملًا .. ومن ثم أكثرهم نصيباً من العقاب ! وقد أكب على المطالعة إلى حد أنه تبدل من قتي بدين مرح إلى آخر نحيل شاحب ، حتى اضطر مدير المدرسة لإرسال خطاب إلى أسرته ، عام ١٨١٣ . يرجوها فيه استعادة « أونوريه » إلى كنفها للعناية بصحته وسرعان ما استرد « بلزاك » عافيته ، ثم أكمل دراسته فى (نور) ، ثم فى باريس ، حيث كان أبوه قد حصل على منصب فيها . وحين بلغ الفتى سن السابعة عشرة التحق

بمكتب موثق عقود ، للعمل فيه وترينا صورته التى رسمت له فى تلك الآونة أنه كان حسن الحلقة ، ذا عينين براقتين ، رقيقتين ، وتعبير وجه صريح ينم عن صحة موفورة .. وقد كان فعلا مفرط المرح صاحب الحيوية . لكنه لم يعتبر نفسه شخصاً سعيداً .. بل كان مرحة . وحيويته يخفيان عواطفه الملتببة المكبوتة فقيم كان يطمع ؟ .. كان يطمع فى شيئين الشهرة ، والحب ! .. وهما أمنيستان كانتا بعيدتى المنال بالنسبة إلى شاب مغمور يعمل فى مكتب موثق عقود . ولا تعباً بالنظر إليه نساء باريس الفاتنات !

اقرأ ما يقوله فى خطاب إلى أخته « لورا » التى كانت - مثل أخوات كثير من العباقرة - كاتمة سره وحليفته « هذه الطاحونة الدائرة التى يسمونها الحياة .. آه لو بعث أحد شيئاً من الدفء فى هذا الوجود البارد إتنى لم أنتج بعد أزهار الحياة ، بينما أنا فى الفصل الوحيد الذى فيه تزدهر .. فإذا تجدينى الثروة ومتعها فى سن الستين . حين أكون قد استنفدت حياتى ولم أعد أستطيع أكثر من أن أشهد غيرى يحيون ؟ ! .. حين أكون قد أكلت طعامى ولم يبق إلا أن أجلس ساكناً لأرى الآخرين يأتون ليأكلوا أواه . إتنى جائع وليس ثمة ما يشبع شهيتى .. ! » .

يرفض الزواج والمال .. فى سبيل الأدب !

● وحين بلغ سن العشرين عرض عليه أبوه أن يزوجه ابنة أحد كبار الموثقين ، كى يرث عنه مكتبه فيما بعد . لكن الفتى أجاب

بأنه منذ صباه قد عشق الأدب والكتابة ، ولا يريد أن يصير موثقاً !... فسخط عليه الأسرة . وأحتقها رأيه ، وصارت أمه القاسية تهزأ به وتسخر . ولم تقف في صفه غير أخته « لورا » .. ولما كان ذا إرادة حديدية فقد ربح المعركة . فسمح له أبوه - رغم احتجاجات أمه - بأن يجرب مواهبه في الأدب لمدة عامين ، يعطيه خلالها ألفاً وخمسمائة فرنك كل سنة . فإذا لم يستطع بعد فترة التجربة أن يثبت نبوغه ويحصل على دخل كاف ، تعين عليه أن يعود إلى مهنة الموثق !

وقبل « بلزاك » شروط أبيه . فاعتكف في سطح بيت عتيق بشارع « ليديجير » حيث عكف على الكتابة بغير انقطاع . كالمحكوم عليه بالأشغال الشاقة . يدفعه حافظ قوى إلى أن يتحدى باريس بأدبه !... لكنه بعد محاولة فاشلة في ميدان كتابة المأساة التمثيلية انتقل إلى ميدان القصص الغريبة التي تثير الرعب ، مثل القصص التي كان « فيكتور هيجو » يكتبها في تلك الآونة ذاتها .. ولكن رغم موهبة « بلزاك » الشاب وعبقريته . كانت تنقصه المادة ، والخبرة والموضوعات . كان عليه أن يجرب الحياة والحب .. وهنا تظهر المرأة الأولى في حياته !

مدام دي برني

● في بلدة (فيلباريسي) حيث انزوى والد « بلزاك » ، يقضى في هلوئها أعوامه الأخيرة ، كانت تعيش امرأة في الخامسة

والأربعين تدعى « مدام دى برنى » . واسمها الخاص « لورا » -
نفس اسم أم « بلزاك » وأخته !

كان أبوها موسيقياً ألمانياً متصلاً بالملكة « مارى انطوانيت » ،
فلما عمدها اعتبرتها الملكة ابنتها فى المعمودية .. وحين كبرت
تزوجت من نبيل شرس ذى نزوات ، أنجبت منه تسعة أبناء ! ..
ولم تكن « لورا دى برنى » جميلة ، وكان أقبح ما فيها أنفها الكبير ..
لكنها كانت ذات نعومة خلابة ، أضاف إليها جو البلاط الفرنسى
حضور البديهة والمرح وشيئاً من السخرية .. أما « بلزاك » فكان
حين التقى بها مرافقاً يحلم بالحب ، ويقرأ كتب روسو « جوليا »
و « الاعترافات » ، فيقضى أيامه باحثاً عن خلية له من طراز
خليلة روسو « مدام دى فارين » !

لكن خجله كان يعوقه عن الظفر بها فى البداية ، أو كما يصف
نفسه حينذاك : « هكذا أنا ، وهكذا سأظل دائماً خجولاً إلى
الدرجة القصوى ، وعاشقاً مجنوناً بحبه ، وعظيماً إلى الدرجة التى
لا أجرؤ معها على أن أقول لامرأة : « إني أحبك » ! .. وأعترف
أنى أبعد ما أكون عن الصلاحية للحب ، فليس لى مظهر العاشق
ولا مسلكه .. لا أملك الكياسة ، ولا الجرأة ، ولا روح العدوان ..
أو بعبارة أخرى أنى مثل بعض الفتيات اللواتى تبدو الواحدة منهن
خجولة غبية رقيقة خرقاء .. فى الوقت الذى تمنى فيه تحت هذا
القناع ناراً تحرق القلب ، والبيت ، وكل شيء ! .. لكنى مهما

أطنبت قلن أبلغ في وصف خلقي ما بلغه كاتب عظيم هو « روسو » ،
 فاقراً وصفه لنفسه في اعترافاته . تفهم كل شيء !
 لكن « بلزاك » استطاع أن يتغلب على خجله بأن يخاطب المرأة
 بالمراسلة ، مدفوعاً إليها بحرمانه الطويل من الحب الأموى ، وشوقه
 إلى امرأة ناضجة تلقنه ما يجهل من أمور الدنيا . فكتب إلى المرأة
 التي في الأربعين ، ربة الأسرة الكبيرة المتشعبة ، رسائل من نار ،
 قال في أولها : « لست أنتظر منك حباً . ولا إعجاباً . ولا تخفية .
 ولا أنفة ، ولا احتقاراً . لكنى كنت دائماً أومن في أعماق كل
 امرأة شعوراً يقرب من الرقة والصدقة . هو الحنان . هو الشفقة
 الكريمة التي تمد يدها للمجانين كما تمدها للتعساء فوداعاً سيدنى
 وداعاً ، واسمحي لى - بدلا من العبارات التافهة المألوفة التي يختم
 الناس بها الخطابات عادة - أن أودع هنا روى كلها . روى
 النقبة غير الموصومة أو الملوثة . التي أجرؤ أن أقدمها لك كهدية من
 أطهر الهدايا التي يستطيع إنسان أن يهديها أو يتلقاها فوداعاً !
 ولعل « مدام دى برنى » قد تلقت هذه الرسالة بالدهشة .
 لكنها أرسلت إلى صاحبها رداً عليها . الأمر الذي لم يكن ينطوى
 على شيء من الحذر

الظفر بالجسد !

● ومن فوره صار « بلزاك » الشاب أكثر جرأة ، فكتب إليها
 يقول : « حين رأيتك في المرة الأولى ، أثار مرآك حواسي وأنعش

خيالى إلى حد صورك لى امرأة كاملة الصفات هكذا يمكنك أن
تعتبرى سنواتك الخمس والأربعين كأن لا وجود لها فى نظرى ،
أو فلاقلى إننى إن تنهت إليها لحظة . فإنما لأنظر إليها كبرهان على
قوة عواطفى ، بينما أنت تحسيتها كفيلة بمحو سحرك إن سنك التى
قد يمكن أن تجعلك أضحوكة فى عيني لو لم أكن أحبك ، لهى على
العكس رباط يربطنى بك بحكم شذوذه ومناقضته للآراء المألوفة ..

ثم تلت ذلك بين الاثنين جلسات . ومحادثات . وساعات
أنفقاها فى القراءة معاً . ومقابلات ليلية فى الحديقة فى غيبة
الزوج ! .. وفى خلال أسابيع معدودة بلغت هذه المغامرة غايتها
الطبيعية :

« أواه يا (لورا) إننى أكتب إليك فى منتصف ليلة تملأ
قلبي فيها صورتك وتطاردنى فى سكونها ذكرى قبلاتك المجنونة
ولكن أى أفكار يمكن أن تواتبنى فى ظرف كهذا ؟ .. لقد بددتها
أنت كلها من رأسى .. نعم . إن روحى بأكلها قد صارت مرتبطة
بروحك .. أواه . إننى محاط بسحر عجيب خلاب ، لا أرى غير
المقعد الخشبى الذى كنا عليه . ولا أحس غير ضغط جسدك الناعم
على جسدى والأزهار التى أمامى رغم ذبولها تحتفظ بأريج مسكر ،
أنك تفضحين مخاوفك وتعبرين عنها فى لهجة تمزق قلبي ولكننى
واثق الآن مما أقمت لك عليه . فإن قبلاتك لم تغير من الأمر
شيئاً .. ولكن لعلى تغيرت ، فإنى أحبك إلى درجة الجنون ! » .

إلى هنا وكل شيء يبدو طبيعياً للغاية، لكن البقية أكثر طرافة..
فإن « مدام دي برني » التي عاشت في البلاط الملكي والتي سمعت
من أمها - التي كانت وصيفة الملكة - ألف قصة وقصة عن النظام
القديم . والتي عاشت خلال الثورة في ظروف روائية خيالية
واحتفظت بالكثيرين من الأصدقاء الارستقراطيين في مجتمع ما بعد
الثورة . تستطيع أن تعلم « بلزاك » الكثير عن الحياة والمجتمع !

وقد كان صاحبنا ذا فضول قوى عجيب ، يهتم بأن ينمي
معارفه في كل باب . في الأعمال، والسياسة، وأزياء النساء ، وأثاث
البيوت، ومباني المنازل، والتاريخ المقارن وخفاياه.. وقد كانت « مدام
دي برني » غنية بالذكريات في جميع هذه الموضوعات . فكم من
قصة أسرت له بها إذن بين القبلة والقبلة، على مقعد الحديقة الخشبي ؟
لكنها لم تزوده بالموضوعات فحسب، وإنما زودته أيضاً بالجرأة على
معالجتها، وقد كان في تلك الآونة في حاجة - أكثر من أي شيء آخر -
إلى فيض من الرقة والإعجاب . وإلى امرأة تؤمن بعقريته في غير
تحفظ .. وكانت « لورا دي برني » هذه المرأة، فأشعرت « بلزاك »
بقوته في هذا الصدد .. حتى لقد كتب بعد وفاتها يقول « في
بداية حياتي كانت هي لي أمّاً حقيقية .. يا إلهي ، لم تعد توجد روح
واحدة تفهمني فقد كانت هناك روح واحدة فقط ! » .

ولم يكن أسلوب مدام دي برني ممتازاً . بل كان نافهاً مألوفاً

شيئاً بهديل النساء العاشقات ، الذى هو بمثابة « تمرينات صوتية » أكثر منه عبارات !.. لكن التأثير الأدبى على « بلزاك » ، للمرأة الأولى التى عرفته على حقيقته ، كان رغم ذلك رائعاً !.. فقد كانت هى التى أعطته - بقصصها - تلك الفكرة الثمينة المبتكرة فكرة تأليف روايات تصف عصره على نسق روايات « والتر سكوت » .. وبناء على نصيحتها أقام بلزاك فى « فوجير » ، الضاحية التى ألهمته مادة كتاب من أروع كتبه ولعل الأدب ما كان ليحظى ببلزاك لولا هذه المرأة ، فإن كثيرين من العباقرة يموتون دون أن يعبروا عن أنفسهم لكنها لم تنفرد وحدها بهذا الشرف ، فقد خلفتها كثيرات أكملن رسالتها !..

مدام دى كاسترى

● كانت ملهمة بلزاك الثانية هى « الدوقة دابراتى » التى كان اسمها الشخصى أيضاً « لورا » ، والتى لعله أحس بجاذبية نحوها مدفوعاً بسحر هذا الاسم فى وعيه .. ولم تكن هذه تصغر « مدام دى برنى » ، كما كانت تفوقها قبلاً ! كانت صورتها الجانبية كالفرس ، وصوتها كالحيزبون العجوز .. لكنها كانت بالنسبة لبلزاك ذات قيمة كبرى ، فقد كانت تعرف نابليون ، وكانت خلية « مترنيخ » .. وقد حكمت بالاشتراك مع زوجها حكومتى أسبانيا والبرتغال !

أما الملهمة الثالثة لبلاك فكانت مدام « زولما كارو » زميلة
أخت بلاك في المدرسة الداخلية .. وقد كانت - من بين ملهمات
« بلاك » - أكثرهن حصافة في الرأي ، ومتاعة في المنال .. فلم
يجرؤ أن يتحدث إليها في الحب وقد كتبت إليه تقول : « لست
أريد - ولم أرد يوماً - الصداقة الممتعة التي تقلمها للنساء اللواتي
يفضلنني ألف مرة وإنما أنا أطمح إلى عاطفة أسمى ، هي أن
أحظى بتقدير الكافي بحيث تجعل مني امرأة « احتياطية » نستجيب
فوراً لندائك ، حين يزعج بهجتك طارئ غير متوقع ، أو تخرج
قلبك خيبة أمل مفاجئة ، فتناديها مستغيثاً »

تولع بإثارة الغرائز .. دون إشباعها !

● وقد كان عند وعددها وإن جميع مراسلاتها مع بلاك لتوحي
بنبل أخلاقها وذكائها المتوقد .. ولكن يبدو أنها أمدته بمادة أدبية
أقل من المادة التي أمدته بها كل من « لورا دي برني » أو « لورا
دا براتي » .. أو عشيقته الرابعة « المركيزة دي كاستري » ، التي
كتبت إلى « بلاك » عام ١٨٣١ ، متحلة اسماً مستعاراً لامرأة
إنجليزية - كما كتبت إلى « سانت بيغ » حين أصدر أشهر كتبه ،
وكما كتبت إلى روائيين كثيرين فيما بعد - وقد أجاب « بلاك »
على خطابها ، ثم انتهى الأمر بها إلى أن باحت لبلاك باسمها الحقيقي ،
واستقبلته في مخدعها الذي قضت فيه الشطر الأكبر من حياتها

طريحة الفراش . نتيجة لإصابتها في حادث صيد .. والمرضى عند النساء يضيق عليهن مزيداً من السحر . وهكذا وقع بلزلك الساذج الملتهب في هواها إلى أخص قلعه لكنها كانت مغامرة غير موفقة ، فقد كانت المرأة عابثة مولعة بإثارة غرائز الرجال . في الوقت الذي تعترم فيه ألا تشبعها ! ومثل جميع النسوة المثریات ، كلفت « مدام دي كاسترى » بلزلك كثيراً من المال . فإنه لكي يرضيها صار ينفق يبدخ . ويحتفظ بخادمين . ويشترى حصانين ، ويحجز لنفسه مقصورة دائمة في الأوبرا ! فكانت النتيجة أنه تورط في الديون . وتورط في الحب . فلم يحصل منها في مقابلة على شيء .. بل صارت تسخر منه . فتجبره على السفر والترحال . وتستدعيه إلى « إكس ليبان » حيث كانت تستجم لكنها لم تسلمه من نفسها في سافوى أكثر مما أسلمته في باريس !

ويمكن تصور مبلغ القلق الذي أحسته « مدام دي برنى » بإزاء هذه المؤامرات العابثة التي أصابت صديقها . فكتبت إليه تقول « إن خوفاً ممبئاً يزحف أحياناً على قلبي كلما سمعت بأحوالك .. فاصغ إلى صوت العقل يا صديقي العزيز المحبوب ! » .

وقد استمع لنصيحتها . فإن كراهيته للمركيزة دي كاسترى كانت تنمو وتزايد في قلبه يوماً بعد يوم .. حتى ثاب إلى رشده آخر الأمر . وحين أعد للطبع قصته « لويس لامبير » سأل « مدام

دى برنى « - صديقه المخلصة ، والمنقذة - أن تكتب إليه ملاحظاتها ونقدها للقصة .. فكتبت إليه تقول ، معلقة على بعض عبارات القصة التي تم عن شيء من الغرور والتفاخر « يا عزيزى ، دع الجماهير تراك من كل ناحية ، بفضل العلو الذى بلغته ولكن لا يلقى بك أن تدعوهم صائحاً كى يعجبوا بك ! » .. وقد قبلها لها هو نقدها الصريح الجرىء ، فجعل إهداء الكتاب حين نشره « الآن وعلى الدوام أهديه للمحبوبة » .

لكن « مدام دى برنى » بلغت أخيراً السادسة والخمسين من عمرها ، سنة ١٨٣٢ ، فكان لا بد أن تفلت من « بلزاك » بعض حركات توحى بسأمة إياها رغم تفانيه في إظهار رفته نحوها وهو يقول فى هذا « منذ صارت لى أفكار ومشاعر ، كرسيت نفسى للحب وحده .. فكانت أول امرأة صادفتها بطلّة ذات قلب ملائكى وروح حسيّة فطنة لكنها - ويا ويلتى من هذا الاستدراك للقاتل الذى أضافته الطبيعة الشيطانية ! - كانت تكبرنى باثنين وعشرين عاماً ، بحيث إذا تفاضيت عن مغزى ذلك من ناحية المبدأ ، وضعت الطبيعة فى وجهى عوائق مادية لا يمكن تخطيها وهكذا فقدت النصف من كل شيء ! » -

يوصى عشيقته الشابة بعشيقته العجوز !

● والخليّة التي جاوزت الخمسين لا يمكن أن تكون متسامحة ، فهي تفتح ذراعيها حين يعود إليها حبيبها التعس باكياً يشكو إليها

المذلة التى لحقته من امرأة أخرى ! .. وهكذا فعلت « مدام دى برنى » حين اعترف لها « بلزاك » بأهوال غرامه المفقود للمركيزة « دى كاسترى » ! وأثناء مغامراته التالية مع « مدام هانسكا » - الحسنة البولندية الجميلة التى أطلق عليها لقب « الأجنبية » ، والتى قدر لها أن تصير فيما بعد « مدام بلزاك » ! - استمع إليه يقول للأخيرة فى أحد خطباته « غداً . إذا أردت ، أحطم قللى .. غداً لا تعود امرأة تسمع صوتى لكننى أسألك الرحمة لمدام دى برنى ، التى هى بمثابة أمى فلسوف تبلغ الثامنة والخمسين قريباً فلا تغارى منها . أنت التى ترنعين فى شبابك ! » .

ولأنه أحب دائماً نساء أكبر منه سناً . أطال بلزاك فى قصصه من الحب ، فخلق لأول مرة فى الأدب القصصى البطلة التى تحب بعد أن تجاوز الثلاثين ! .. لكنه رغم هذا لم يجرؤ على أن يصور فى أدبه قصته الشخصية الواقعية إلى نهايتها ، التى بلغت بموت « مدام دى برنى » ، بعد أن أصيبت عام ١٨٣٤ بمرضها الأخير .. وهو يصف هذا المرض فيما بعد بقوله : « إنها تسمو بصداقتها إلى حد إخفاء آلامها عنى .. فهى تريد أن تشفى من أجلى .. يا إلهى ، لكم تغيرت فى الشهرين الأخيرين .. لقد أصابنى الرعب حين رأيته ! »

وحين ماتت كتب : « استأنفت عملى هذا الصباح ، إطاعة لتوصية لورا وكلماتها الأخيرة التى كتبتها لى ، والتى قالت فيها :

« الآن أستطيع أن أموت مطمئنة ، فلأني واثقة أنك ستضع فوق جبينك التاج الذى طالما حلمت بأن أراه فوقه . إن قصتك « زنبقة الوادى » عمل أدبى عظيم ، دون ملق أو رياء إلخ »

زنبقة الوادى

● وقد كان الدافع لبزالك على كتابة « زنبقة الوادى » هو مرض « مدام دى برنى » الأخير .. ذلك السيف المصلت الذى أوحى إليه بالرغبة فى أن يشيد لتخليد صديقه صرحاً أدبياً يكون جديراً بها ، وتراه قبل موتها !

وبطل القصة « فيلكس دى فاندنيس » ينتمى إلى إحدى أسر النبلاء فى (تورين) ، قضى طفولة قاسية - مثل بلزك - ولا يعرف شيئاً عن النساء : « إذا أردت أن تكون صورة عن صباى فتخيل نفسك محمولا على أجنحة الماضى إلى تلك السن العذبة ، حين كانت شفتاك عذراوين لا تعرفان الكذب .. وعيناك صريحتين تنظران إلى الدنيا بلا خوف ، وإن أثقل أجفانهما الخجل الذى يصارع الشهوات .. وعقلك ساذجاً لا يعرف بعد نفاق المجتمع وأخيراً ، حين كان جبن قلبك يساوى فى عنفه وقوته كرم إحساسك البكر .. »

وذات يوم فى مقاطعة « تورين » ، فى سن العشرين . يحضر الفتى حفلته الساهرة الأولى . فيجد نفسه جالساً إلى جوار امرأة

مجهولة ، يفتنه جمالها إلى حد أنه - دون أن يشعر بما هو فاعل -
يلثم كتفها العارية !.. فتطلق المرأة صيحة حادة وتستدير نحوه
مستاءة ، قائلة فى لهجة تأنيب : « مسيو .. ! » ، ثم تأخذ سميتها إلى
الخارج فى خطوات كخطوات الملكات !

من هى ؟.. لم يجرؤ فيلكس على السؤال ، وإن راح يبحث
عنها فى كل ركن من (تورين) وذات يوم يهتدى إلى واد ساحر
رائع يجرى فى بطنه سحر كالشعبان.. فيقول لنفسه إذا كانت هذه
المرأة تعيش فى مكان ما على الأرض فهذا هو المكان !
ولم يكن مخطئاً فهناك كانت تعيش «مدام دى مورسوف» !..
ويقدمه إليها أحد جيرانها فإذا هى ذات زوج مسن كربه غيور ،
وطفلين مريضين لكنها برغم ذلك لم تفكر يوماً فى أنها تستطيع
أن تفعل شيئاً فى حياتها غير أن تكرر نفسها لأسرتها.. لكنها تفعل
ذلك وهى تتألم . ويقدر فيلكس - الذى جرب العذاب الروحي -
مدى آلامها . وحين يزور البيت لا ترتاب المرأة فى مقاصده ،
بحكم طهر نفسيته .. أما زوجها الكونت دى مورسوف فقد استماله
الفتى إليه بمجاراته فى لعب «الطاولة» وتلقى دروس الزراعة وفلاحة
البساتين على يديه !

كل شيء .. إلا الحب !

● ولكن ، فى اللحظة التى يطرق فيها فيلكس حديث الحب ،
توقفه «مدام دى مورسوف» عند حده قائلة : « هذا هو الشيء

الوحيد الذى يجب ألا تفعله .. فإذا لم تقدر الأمر فسوف أضطر
إلى أن أطلب منك عدم الحضور مرة أخرى ! »

ويقبل الشرط ، قانعاً بأن يلمس ثوبها بين حين وآخر ، ويقبل
يدها : « وحين تفشل الكلمات ، يحدث الصمت أثره فى نفسينا ،
اللتين ذابت إحداهما فى الأخرى ، بغير قبلة فى الفم ! فنظل نحلق
فى سماء حلم واحد ، ثم نسقط فى بئر ليس لها قرار وحين نعود
فننظرو فوق السطح ، فارغى اليدين ، يسأل أحدهنا الآخر بنظراته
ترى هل يقدر لنا أن نحظى بيوم نستطيع أن نسميه « يومنا » ؟

ثم يدخل « فيلكس » غمار الحياة السياسية ، تقوده حكمة
« مدام دي مورسوف » - كما فعلت بيلزاك « مدام دي برنى » -
ويحصل على منصب فى حكومة « لويس الثامن عشر » بباريس !
وهناك يلتقى بامرأة إنجليزية حسنة ، « ليدى أرابيل ردلى » ، التى
تحاول أن تستميله إليها . لمجرد شعورها بأنه ملك لغيرها ! .. وتزيد
المقاومة من حدة عواطف الطرفين « كانت تعرض على وهى
تضحك أكثر العروض تواضعاً ، وهى تعدنى بالتكتم الشديد
أو تطلب مجرد السماح لها بأن تحببى .. وذات يوم قالت لى ،
مستنجدة برغبات شبابى المكبوتة « سوف أظل دائماً صديقتك
وخليلتك حينما تريد ! » وأخيراً رسمت خطة محكمة للظفر بى ،
فأسنالت خادى كى يسهل دخولها على فى البيت ، فى الظرف



ويقبل الشرط ، قانعاً بأن يلمس ثوبها بين حين وآخر ويقبل يدها

الذى تراه مناسباً لقهر مقاومتي وانتهزت فرصة ليلة رأيتها فيها في إحدى الحفلات في مظهر خللاب وجمال باهر .. فلم أكد أعود إلى البيت حتى وجدتها تنتظرني ، في أجمل ثياب الإغراء ! .

ومنذ تلك اللحظة يجد « فيلكس » نفسه تمزقها الحيرة بين « مدام دي مورشوف » و « ليدى ردلى » - كما وجد « بلزاك » نفسه حائراً بين « مدام دي برنى » وعشيقة أخرى تصغرها سناً - فيحز تذبذبه في نفس « مدام دي مورشوف » ويقتلها الأسى .. وحين تقترب من حافة الأبدية ، تجد من نفسها القوة والجرأة على أن تصارحه بحبها « وداعاً يا طفلي الغالي من روح سكبت أنت فيها من الأفراح والمباهج ما أنوء بحمله ، وما يغفر لك الكارثة التي انتهى أمرى إليها أنا موقنة من أنك تحبى ، لهذا أقرب من راحتي الأبدية وأنا أرنجف أسفاً ونلماً . »

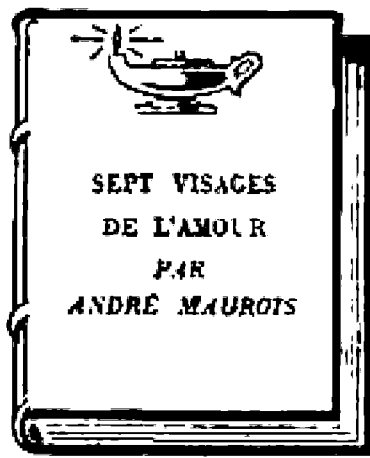
زناىق ملطخة بالوخل !

● تلك هى القصة التي سخر منها البعض ، بزعم أن لغة الحب فيها نبيلة أكثر من الطبيعي !.. لكن سخريتهم في الواقع ظالمة ، فبنفس اللغة كانت تعامل « مدام دي برنى » - الحقيقية - عاشقها « بلزاك » - رغم تلطها في حبه .. أما « ليدى ردلى » ، فبالرغم من أنه لم يكن لها وجود في حياة « بلزاك » ، فإنها قد أضفت على القصة أنفاساً من الحياة ، وأضافت إليها فصولها الرائعة .. التي

تصور شعور الرجل وهو يشهد موت المرأة الأولى التى أحبها فى حياته ، دون أن يخلو قلبه من إحساس بالإثم ، بأنه المسئول إلى حد ما عن موتها الذى سببته الغيرة والكمد .. !

هذه هى « رنبقة الوادى » والمرأة الموحية بها .. أما الزنايق الأخرى فى وادى حياة « بلزالك » فقد كانت ملطخة بالوحل ، وخاصة « مدام دى كاسترى » التى أوحى له طبيعتها العابثة بقصته الأخرى الرائعة « الدوقة دى لانجيه » وليس هذا مجال الحديث عنها

وفى الفصل القادم يطالعنا « أندريه موروا » بالوجه السادس من وجوه الحب السبعة !



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق اندريه موروا

٦ - مدام بوفاري

للكاتب الفرنسي الخالد : جوستاف فلوبير

الوجه السادس ..

● تخرج بنا الكاتب المحلل « أندريه موروا » وهو يستعرض أطوار الحب وألوانه ، في هذه الفصول الشائقة ، من حب « مدام دى كليف » المنطوى على « الفروسية » والشهامة .. إلى حب جوليا - (هيلويز الجديدة) - الرومانتيكى الطاهر .. إلى الحب الفاجر كما تصوره قصة « العلاقات الخطرة » .. إلى الحب « ذى الوجهين » ، الذى يمتزج فيه الطهر والفجور ، كما أبدع فى وصفه « ستندال » فى قصته « الأحمر والأسود » .. وأخيراً رأينا الوجه الخامس من وجوه الحب فى قصة « بلزاك » الخالدة « زبقة الوادى » .

واليوم يقدم لنا « موروا » سادس ألوان الحب ، وهو الحب الذى يوحى به « الضجر » .. والرغبة فى الفرار من الواقع !

١ - «فلوير» .. الانسان

● كان أبوه جراحاً شهيراً في مدينة (روان) ، فنشأ الابن بين جدران مستشفى أبيه ، وكان أول ما تفتحت عليه عيناه في دنياه ، العراك مع الموت ! .. أو على حد وصفه « كان مدرج المستشفى يشرف على حديثنا . وكم من مرة تسلقنا - أخواتي وأنا - تكعية الكروم ، كي نتأمل الجثث المددة تحتنا ، والشمس تحرقها بنارها ، والذباب ينهشها في غير رحمة نفس الذباب الذي يحوم حولنا نحن ويطن فوق هام الأزهار ! »

ويؤثر المنظر في عقل «فلوير» الباطن .. حتى يكبر ويغدو رجلاً ، فيكتب إلى خليفته «لويز كوليه» يوماً رسالة يقول فيها : « إن منظر المرأة العارية يجعلني أتخيل هيكلها العظمي ! » .

ويشغف فلوير منذ صباه بالتعمق إلى باطن « النفوس » البشرية أيضاً - لا الأجسام وحدها - وإلى تأمل « الهيكل العظمي » للأفكار الشريرة التي تختبئ في أعماق أتنى الناس سيرة في الظاهر ! .. فإذا الخطاب الأول الذي يكتبه الصبي وهو في سن التاسعة إلى أحد أصدقائه يتضمن هذه العبارات « يا صديقي ، إنك محق في ملاحظتك تخفف الاحتفال برأس السنة إن أكثر تصرفات الناس تبدو لي مخيفة غبية ! »

وحياة «فلوير» هي ثورة عنيفة طويلة الأمد ضد غباء بني البشر ! .. فقد شب ساخطاً حانقاً على أولئك الرجال « الذين تملأ

حياتهم عاطفتان جمع المال ، والحياة من أجل ذواتهم فقط ! ..
 .. وأولع منذ يفاعته بقراءة « هوجو » و « شكسبير » و « بيرون »
 و « روسو » .. لكن « هوجو » كان أحبهم إليه ، وحين قدر له
 يوماً أن يزوره في بيته كتب يقول : « لقد استمتعت برؤيته عن قرب
 فحدقت فيه مشدوهاً ، كما أحلق في إناء مملوء بملايين الجواهر
 الكريمة ، متأملاً كل صغيرة وكبيرة تصدر عن هذا الرجل الذى جلس
 بجوارى على مقعد صغير ، مدققاً النظر في يده اليمنى التى كتبت
 كل تلك الروائع الجميلة ، قائلاً لنفسى « هذا هو الرجل الذى
 جعل قلبى ينبض أشد نبض عرفته منذ ولدت ، والذى أحبته أكثر
 من جميع من لم أعرف ! » .

والكاتب الثانى الذى كان له تأثير أدبى كبير على « فلوير »
 هو « جيته » ، فقد قرأ قصته « فاوست » في شارع (كورلارين)
 الجميل بمدينة روان ، الذى تحف به الأشجار العالية من جانب ،
 ويحف به من الجانب الآخر نهر السين .. وفي مواجهته على الضفة
 الأخرى تدق أجراس الكنائس التى يختلط رنينها فى الوعى بشعر
 « جيته » الرائع فكان رأسه يدور ويعود إلى بيته كالماخوذ .. !

العاشق الخجول

● وقد كانت أول امرأة فى حياة « فلوير » فتاة إنجليزية من
 صديقات أخواته ، كان يرتبك ويعتريه الاضطراب فى حضرته .. !
 وحين بلغ الخامسة عشرة - وكان فى مدينة (تروفيل) - التقى

بزوجة أحد كبار رجال الأعمال ، وتدعى « ماري شليزنجر » ،
فكانت ذكرى حبه إياها هي التي أوحى له بشخصية « مدام ارنو »
بطلة قصته « التربية العاطفية » . ويظهر أنها كانت جميلة ، تكبره
بثلاث عشرة سنة . ولكن حبه إياها كان حباً « أفلاطونياً » ،
عذرياً - فقد كان يغلب على طبيعته الخجل ، الذي ضاعف من
حدته مرض عصبي لم يلبث أن أصابه فنه طيلة شطر كبير من
حياته من أن يختلط بالناس ، واضطره إلى الاعتزال في بيت صغير
بضاحية « كرواسيه »

لكن حياته فيما بعد لم تخل من خلية . واحدة على الأقل ،
هي « لويز كوليه » . وبإلها من خلية ! كانت لويز امرأة
رائعة ، كرس جسد لها الوردى وشعرها الأشقر وعينيها
الجميلتين للترفيه عن الأدباء . فتنقلت بين أحضان « فكتور
هوجو » . و « ألفريد دي موسيه » . و « ألفريد دي فيني » ..
وفي سنة ١٨٤٦ التقت بفلووير ، الذي كان في الخامسة والعشرين ،
فلم يمض شهران حتى صارت خليلته !

ويبدو أنه أحبها حباً مفرطاً . يفضحه خطابه الأول إليها
« منذ اثنتي عشرة ساعة كنا ما نزال معاً ومع ذلك ، فلکم يبدو
ذلك الآن ، ماضياً حقيقاً ! .. الليل من حولي دافئ ناعم ، وإني
لأسمع تحت نافذتي حفيف أشجار الخزامى يعبث بها الهواء ، وأرى
القمر منعكساً على صفحة النهر .. لكنني وحيد ! .. لقد وضعت

خطابيك اللذين أرسلتهما إلى في حافظة أوراق المطرزة ، ولسوف أعبد قراءتهما حين أفرغ من كتابة هذا الخطاب . إنك المرأة الوحيدة التي أحبتها ، باستثناء امرأة أحببتها من سن الرابعة عشرة إلى سن العشرين ، دون أن أقانحها أو ألمسها ! .. لكنك الوحيدة التي أحبت في قلبي الأمل في أن أحظى بإعجابها .. بل لعلك الوحيدة التي حظيت بإعجابها فعلا .. فشكراً ثم شكراً ! » .

وقد سخر « فلوير » فيما بعد من هذه العبارات التي كتبها ، فإنه سرعان ما تمالك نفسه فزهد فيها وبدأت صلتها تفسد تدريجاً .. حتى كتب لها ذات يوم يقول « يبدو أنك لا تفهميني على حقيقتي ، فأنت أحياناً ترفعينني إلى مرتبة أسمى مني ، وأحياناً أخرى تهبطينني إلى درك أدنى مما أستحق .. وهذا هو داء النساء منذ القدم : فهن لا يعرفن الاعتدال ، ولا يردن أن يفهمن المخلوقات المعقدة ، التي هي الغالبية العظمى بين البشر ! .. ولقد تبينت منذ زمن أن من يريد أن يعيش حياة هادئة لابد أن يعيش وحيداً ، ويحكم إغلاق نوافذه لكلا يتسرب إليه هواء المجتمع ! .. وهذا هو السبب في أنني عشت سنوات عديدة أتجنب رفقة النساء ! » .

ولقد كان « فلوير » في حبه ، كما في صداقته ، قاسياً ، سريع الغضب ، فريسة للانفعالات والتقلبات العنيفة .. أو كما وصفته « لويز » - وبحق - بعد انفصالها : « أن شخصيته الوحشية كانت دائماً السخط والحق في أوقات وحدته ! » .. لكنها رغم ذلك اعترفت

بأن صلابته وشدته وكبرياءه قد منحته سيطرة عليها لا تقاوم !
على أن لويز قد أمدت فلوير ولا شك ببعض العناصر التي
استخدمها فيما بعد في كتابة قصته العظمى « مدام بوفارى » ،
التي كان شروعه في كتابتها - في سنة ١٨٥١ ، وهو في سن
الثلاثين - خاتمة حياته كعاشق فنذ ذلك الحين حتى نهاية عمره
تنحصر قصة حياته في قصة عمله دون سواه !

وقد اقتبس فلوير حوادث القصة وشخصياتها من قصة واقعية
بطلها طبيب من تلاميذ فلوير الأب يدعى « ديلامار » . كان
يعمل طبيباً لقرية (رى) حين ماتت زوجته ، فتزوج من فتاة
تدعى « ديفلين كوتورييه » نشأت في مدرسة (روان) الداخلية
للبنات ... إلخ .

ولكن فلننتقل من القصة الواقعية إلى القصة الروائية ، قبل
أن يفسد السياق حوادثها ومفاجأتها .. !

٢ - مدام بوفارى

● « شارل بوفارى » طبيب من أطباء الريف ، أرمل .. يستدعى
ذات يوم لعيادة فلاح نورمندى من يدعى « روال » .. وهناك
يرى إلى جوار فراش المريض ابنته « إيمما » ، فيدهشه يباض
أظافرها « المشرقة الرقيقة » ، الأكثر لمعاناً من العاج وإن كان
جهالها الحقيقي يكمن في عينيها السمراوين اللتين تبدوان ، من فرط
غزارة أهدابها الفاحمة ، سوداوين .. ونظرتها الصريحة الجريئة ..

ورقتها القائمة فوق ياقة ثوبها البيضاء وشعرها الأسود الناعم ،
الذى يشقه من الوسط جدول رفيع أبيض ... إلخ » .

ويعرب الطبيب على رغبته فى الزواج منها ، ويوافق والدها ..
وكذلك تفعل هى ، فلأنها قد ضاقت ذرعاً بالريف . ومن يدري ؟
لعل هذا الطبيب الرينى يكون قى أحلامها ! .. وفى ليلة الزفاف
تمنى « إيمما » لو تزف فى منتصف الليل على ضوء المشاعل الباهرة ،
لكن والدها الشيخ لا يستطيع أن يقدر هذه النزوة التى تشف عن
حسن مرهف !

على أن « شارل بوفارى » يخيب رجاء عروسه ذات الخيال ،
والحسن المرهف « لقد حسبت قبل الزواج أنها تحبه . ولكن حين
لم تواتها السعادة التى تعقب الحب عادة ، بدأت تستتج أنها لا بد
كانت مخدوعة فى عواطفها ! .. وحاولت « إيمما » أن تتصور
ماذا يقصد الناس بالضبط بكلمات « الهناءة » و « النشوة » ،
و « العواطف الملتبهة » ، التى تبدو جميلة فى الكتب !

نعم ، فى الكتب ! .. فلأن أبرز صفات « مدام بوفارى » أنها
قد كونت عقائدها عن الحياة من الكتب ! « كانت قد قرأت
(بول وفرجينى) ، وحلمت بالعش الجميل الصغير ، والحداد
الزنجى « دومنجو » ، والكلب الأمين ، وقبل كل شىء بالصدقة
العذبة مع الأخ الغالى الذى يتسلق الأشجار كي يقطف لك منها

الثمار الحمراء ، أو يجرى على الرمال حافى القدمين كى يحلب لك
عش عصفور «

فأين من هذا ريف « نورماندى » حيث تعيش ، وحيث
لا شيء يذكى الوجدان ؟ .. « كانت لا ترى غير قطعان الماشية ،
والمحراث ، وحظائر الأبقار التى تدر اللبن ، فلت هذه المظاهر
المهذبة للحياة .. وتافت إلى مظاهرها الصاخبة أحبت البحر من
أجل عواصفه وحدها ، والحقول الخضراء حين تبدو فقط بين
الأطلال .. ونبت كل ما لا يحقق لقلبها رغباته المباشرة كانت
تبحث عن الانفعالات ، لا مناظر الطبيعة ! .. ولم تكن تحرك قلبها
غير حياة الهوى كما تصفها القصص والروايات ، حيث العشاق
والعشيقات ، وأنين القلوب الوهنة ، وعود الغرام ، والتأوهات ،
والدموع والقبلات والزوارق التى تمر تحت ضوء القمر ،
والبلابل التى تغرد فوق الأفنان فى الغابات والرجال الشجعان
كالأسود ، الرقيقون كالحملان ... إلخ .. وكان جو المؤسسة التى
درست فيها قد ساهم فى إذكاء وجدانها .. لم يكن فى الصور التى
ترى غرفة الموسيقى بها ، والمقطوعات التى كانت « لىما » تغنيها ،
غير « الملائكة الصغار ذوى الأجنحة الذهبية ، والعدارى الساحرات ،
والملاحين الذين يغنون فى زوارق الجندول وهى تشق أمواج
البحيرات إلخ »

وكانت شغوفة بتأمل الصور واللوحات الجميلة التى تقع عليها

عينها : فهذه شرقه قصر عتيق يقف فيها شاب ذو معطف قصير ،
 وبين ذراعيه فتاة ترتدى ثوباً أبيض وهؤلاء نسوة إنجليزيات
 بشعورهن المجدلة ، ينظرن إليك بعيونهن البراقة من تحت قبعاتهن ..
 وهؤلاء سلاطين من الشرق ، مسترخين تحت مظلات باتينهم ،
 يدخنون غلايينهم الطويلة .. وفي أحضانهم محظياتهم ! .. وهذه
 أشجار نخيل ، وتلك معاطف فراء ، ونمور وأسود ، ومنازة في
 الأفق ، وأطلال رومانية ، وإبل تعبر الصحراء ، وغابات عذراء ،
 وغدران وجداول ترقص على صدرها أشعة الشمس ، ويسبح فيها
 البط الخ .

تلك كانت عوامل تكوين نفسية « لماروال » قبل الزواج
 فلما التقت بشارل - الرجل الوحيد الذى كانت تستطيع أن تراه
 كثيراً وبلا حرج فى بيت أبيها ، بحكم أنه طيبه - أيقظ وجود
 هذا الغريب فضولها ، وهباً لها أنها قد عثرت آخر الأمر على
 العالم العاطفى السحرى الذى طالما رآته فى الصور ، وقرأت عنه فى
 الكتب وحلمت به وهى تنصت للموسيقى ! .. فلما تم الزواج
 لم تستطع إقناع نفسها بأن حياتها المصادفة مع شارل هى الجنة التى
 طالما حلمت بها !

وعندئذ ، بدلاً من أن تعيش فى الواقع ، استمرت تحلم ..
 تحلم بالرحلات .. بالفرار فى عربة مقفلة تغطى نوافذها الستائر
 الحريرية الزرقاء ! .. وتحلم بصوت أجراس الأغنام ، وشلالات

الجبال ، والخلجان التي يشم المرء على شواطئها أريج أشجار الليمون !.. ولو استطاع شارل أن يتيح لها بعض الرحلات من وقت إلى آخر ، أو حتى يصفها لها ، لربما كانت قنعت بذلك ، ووجدت فيه سعادتها المنشودة لكن أحاديث شارل كانت تافهة مملة ، وهوياته معدومة : فهو لا يمارس الصيد ، ولا السباحة ، ولا المبارزة بالسيف !.. بينما الرجل في رأيا يجب أن يشغل نفسه بأوجه شاط متنوعة ، ويكون قدوة للمرأة في تجربة الانفعالات المختلفة ..

وهكذا خاب ظن « إيمما بوفاري » في زوجها فإن الحب الذي كان حقيقاً بإرضاء نزعها هو الحب اللخيل الغريب الذي قرأت عنه في الكتب .. أو هو الحب الذي حلم به فلوير نفسه - مؤلف القصة - في سنوات مراهقته ، والذي لم يطفى جذوته غير رحيله إلى الشرق وتقلبه بين أحضان غانيات مصر بوجه خاص ! وهكذا تسائل « إيمما » نفسها « لماذا بحق السماء تزوجت ؟ .. هل يوجد سبيل إلى الالتقاء برجل آخر ؟ لا يمكن أن يكون الرجال جميعاً مثل هذا الرجل .. ولكن ، ترى هل يوجد في الدنيا حب ؟ .. وما وصفه وكيف يكون ؟ »

وبغير أن تشعر ، تلفت « إيمما » حولها فتعثر أول الأمر على موظف خجول مراهق يدعى « ليون » ، مرهف الحس مثلها .. فإذا آراء كل مهما وأحاديثه أشبه بصدى لآراء الآخر وأحاديثه !..

فهي حين تسائله : « هل تذهب للترهة في المناطق المجاورة ؟
يحييها : بأنه يذهب كي يرقب غروب الشمس .. فتدفع معلقة :
- أوه ، لا شيء أجمل من ساعة الغروب وخاصة على
شاطئ البحر .

- لكم أحب البحر !

- ألا تشعر بأن الفكر يطير طليقاً من كل قيد فوق تلك المساحة
الشاسعة من الماء ، التي يسمو التأمل فيها بالروح ويعطيك فكرة
عن اللانهاية ، وعن الأمور المثالية ؟ ..
- بالضبط .. وكذلك الحال فوق الجبال ..

وهكذا يحلمان بتجاوب روحي بينهما ، ويغلبهما العجب من
وجود هذه اللذة التي كانا يجهلانها .. لكنهما لا يفكران في التحدث
عن هذا الشعور الطارئ أو في البحث عن سببه .. وإنما هما يتركان
هذا « السم » العذب يسرى في نفسيهما ، دون أن يفكرا لحظة فيما
وراء الأفق الممتد أمامهما !

وتنتهى « لهما » إلى أن « ليون » هو العشيق المنشود الذي تلجأ
إليه إذا لزم الأمر ! لكنه يغادر البلدة ، إلى غير رجعة ، دون
أن يحرؤ على تحقيق حلمها !

● وتعتقد « ليمما » أملها الثاني بعد ذلك على « رودلف » . وهو رجل ذو حيوية وطباع « وحشية » . تمرس بالنساء طويلاً حتى صار قديراً على أن يحكم عليهن من النظرة الأولى حكم خبير ! .. وبالفعل تروق « مدام بوفارى » في عينيه ، فيعتزم الظفر بها ويتنهر فرصة المعرض الزراعى الذى يعقد في البلدة كى ينفرد بها على مرأى ومسمع من الناس جميعاً ! .. وفيما ينشغل الرسميون بتوزيع الشهادات والجوائز على الفائزين ، يهمس « رودلف » فى أذن « ليمما » بالعبارات القديمة المألوفة التى طالما مكنت الرجال من غزو قلوب النساء .. مثلما تمكن خطط حربى معينة من كسب المعركة دائماً ! وتترك « مدام بوفارى » نفسها تستجيب لغزله بسهولة ، كما هو متظر .. وبينما يسلك هو معها - فى بساطة - مسلك الواقعى . تحاول هى أن تضى على المغامرة جواً روائياً فحين يلتقيان فى حديقتهما ، بناء على موعد مضروب ، ويسمع هو حفيفاً قريباً تسأله هى :

ـ هل أحضرت معك غدارتيك ؟

ـ لم ؟

ـ لكى تدافع عن نفسك !

وتنظر تكرر لنفسها فى غبطة : « لقد صار لى عشيق صار لى عشيق ! » « وهكذا تتذوق أخيراً مباحج الحب - تلك الحمى من السعادة التى كان قد أدركها اليأس من تذوقها - فأحست أنها

تدخل عالماً رائعاً ليس فيه غير العواطف الحارة ، والنشوة ،
والهذيان !.. ونراى أمام خيالها أفق لازوردى لانهاى والتمت
فى تصوراتها قمم جبال من الانفعالات الحادة .. ولم تعد ترى
الحياة العادية الباردة إلا على بعد سحيق . فى الظلال المعتمة المتروية
بين تلك القمم العالية ثم استدعت إلى ذهنها بطلات الكتب ،
والقصص التى قرأتها . وبدأت أغانى وأهازيج أولئك الزانيات
تردد فى أذنيها الحالمتين .

وكما يحدث عادة . لم تكذب « إرما » تقع فى هوى صاحبنا ، حتى
حلمت بالسفر والرحلات . رأت نفسها محمولة مع « رودلف »
فى عربة تعدو بها أربعة جياد ، نحو وطن جديد .. « بلمحان آناً من
فوق قمة جبل مدينة رائعة بقباها ومناظرها ، والسن الراسية فى
مينائها ، وغابات الليمون المتكاثفة خارج تخومها .. وكنائسها ذات
الأبراج الرخامية البيضاء التى تبنى للطيور أعشاشها فوق أطرافها
المديية . وحين يبلغانها تخرج إليهما بائعات الزهور فى ثيابهن
الحمراء . كى يعن باقة منها للعاشقين . وذات ليلة يقف ركبهما
عند قرية من قرى صيد السمك ، حيث الشباك منشورة على
الصخور ويى الأكواخ كى تجف فى الهواء . وهناك يقع
اختيارهما على منزل صغير من طابق واحد ، تظله شجرة نخيل فى
قلب الخليج المشرف على البحر ، كى يقضيا فيه أياماً ، تتخللها



ثم استدعت إلى ذهنها بطلات الكتب ، والقصص التي قرأتها

نزاهات للتجديف في قوارب الجندول وخلوات بين أحضان
الأراجيع الشبكية » إلخ

وتحاول « إيمما » جاهدة أن تجعل من « رودلف » البطل الذي
أحبته بالخيال ويحاول هو من جهته أن يكون عند ظنها ، مستعيناً
على إتقان الدور الذي تسنده إليه ببعض قراءاته القصصية ، على
قلتها .. لكن الأمر الذي يعجز عنه حقاً هو تحمل عنف عاطفتها
طويلاً !.. ولعل « فلوير » حين صور « رودلف » قد استلهم
مسلكه هو الشخصى بإزاء خليلته « لويز كوليه » وخاصة حين
تبكى « إيمما » نائحة « إنك أنت الذى أحبه أحبك إلى درجة
أنى لا أستطيع الحياة بدونك ، أفهم ؟ .. وأنه تمر بى أوقات أحس
فيها شوقاً جارفاً إليك . بحيث يكاد الحب يمزقنى .. فأسائل
نفسى « أين هو الآن ؟ . لعله مع نساء أخريات ، يتحدث
إليهن ويتسمن له !.. أواه ، إن الأمر ليس كذلك أم لعله
كذلك ؟ تكلم ! صارحنى ألا تجذبك امرأة أخرى ؟ اعترف أن
هناك من هن أجمل منى ، لكننى أفوقهن قدرة على الحب .. إنى
خادمتك ومحظيتك وأنت ملىكى ومعبودى .. إنك طيب ،
وأنيق ، وذكى ، وقوى ! » .

فإذا يكون رد الفعل من جانب رودلف ؟

إنه قد سمع هذه العبارات من قبل ، وليست « إيمما » غير

خليلة مثل سائر الخليلات !.. وأما جاذبية الشيء الجديد فتسقط تدريجاً في وعيه كما يسقط الثوب عن الجسد ! تاركة الملل العاطفي المألوف عارياً لا يحجبه شيء !.. ذلك أن « رودلف » لا يستطيع أن يفهم أن وراء كلمات « إيمما » النافهة وعباراتها المألوفة تكمن عاطفة صادقة ملتزمة . وحين تعرض عليه أن يحيل الحلم إلى حقيقة ويفر معها ، يكون ذهنه منشغلاً بالتفكير في الانفصال عنها !.. وهكذا يعتذر إليها متعللاً بما يقتضيه الفرار من نفقات وانزعاج لا يقدم عليهما غير الأغنياء !.. وينفصلان !

• • •

● ويحدث الانفصال أخطر أزمة نفسية في حياة « إيمما بوفاري » .. فحتى هذه اللحظة كانت هي تأمل أن يكون للحب الشاعرى وجود ، بل كانت تؤمن به إيماناً وطيداً فلما انهار . بدأت المرأة الحاملة التي فشلت في غرامها ، والتي ماتزال تحتفظ بفزعها ورعبها من الواقع ، تحاول إغراق آلامها في الملذات ، وفي إذكاء حدة حواسها ، وإشباعها - وهذا ما يصفه القسم الثانى من القصة بالتفصيل - ولكن بين القسمين فترة انتقال ، تمرض فيها « إيمما » .. والمرض وسيلة نفسية رائعة للفرار من مآزق الواقع المرير !

وحين تبل « إيمما » من مرضها . تحاول إنقاذ نفسها بالعودة

إلى حب زوجها . باذلة أقصى ما فى وسعها كى تروض قلبها على قبول هذا الحب ، مستعينة على ذلك بمحاولة أن تخلق منه رجلاً عظيماً . يستحق هذا الحب .. فلعلها لو أحست نحوه بشعور من التقدير . تستطيع أن تحبه ! .. وفعلاتحين لها الفرصة المنشودة حين يعمرى زوجها جراحة خطيرة للغلام الفندق . وهى جراحة لو نجحت لجعلت من الدكتور بوفارى جراحاً شهيراً ! .. لكن الجراحة تفشل . فتدمر حياة « بوفارى » ومستقبله . وتدخل الاضطراب على عمله . ومنذ تلك اللحظة تنزلق « إيمما » . وتهوى من حائق !

بم تستطيع أن تتعلق وتثبت ؟ .. من من رجال القرية تستطيع أن تحب ؟ .. الصيدلى « أوميه » ؟ لكنه رجل وقور ، وثرثار لا يحسن غير الكلام ! أم القسيس « لورنيزيان » ؟ إنه متبذل دنىء . لا يعرف الإخلاص

وهنا . أثناء رحلة إلى (روان) . تلتقى بالشاب الذى ترك القرية غير مجترئ أن يفاتها بحبه : « ليون » !
وتصير خليلته !

ولكن رغم استسلامها لهذه المغامرة فى استهتار طائش ، لا يخالطه شيء من التحفظ . فإنها - مرة أخرى - تصاب بخيبة أمل : « كانا قد اعتادا تدريباً أن يتحدثا فى أمور لا نمت بصلة إلى حبيهما . وفى الخطابات التى صارت « إيمما » تكتبها إليه .

تحدثت عن الأزهار ، والشعر ، والقمر ، والنجوم وغيرها من الوسائل الخارجية الساذجة التي تستنجد بها العاطفة حين توشك أن تنطفئ .. كى تبقى على قيد الحياة ! .. وكانت « إيمما » لا تفتأ تمنى نفسها بالسعادة المطلقة في الخطوة التالية .. ثم تضطر إلى الاعتراف لنفسها بأنها لم تحس جديداً ! .. ولكن سرعان ما كانت هذه الخيبة تخلق السبيل أمام أمل جديد ، فتعود « إيمما » إلى عشيقها أكثر انفعالا ، وأحد عاطفة ، منها في أى لقاء سابق !

وبين الحقيقة والحلم ، كان التفاوت يزداد كل يوم اتساعاً - رغم تجربة إيمما لجميع ظروف اللقاء التي وصفها الشعراء ! - وكانت أكثر خلواتهما الغرامية تتم في (روان) ، في غرفة بأحد الفنادق تسدل عليها الستائر التركية الحمراء .. وهناك تعرفت « إيمما » ذات مرة بالتاجر « لورو » ، الذي أوقعها في قبضته عن طريق إقراضها مالا مقابل كيالات مدمرة !

وهكذا صارت الزوجة شبه غانية متلافة تغرق نفسها وحواسها في طوفان من الملذات ، والطور ، والزهور ، والطعام ، والخمور .. وتنفق ساعات أمام مرآتها تمشط شعرها الطويل المتهدل على كتفها ، وهي تستشعر في ذلك لذة عارمة وأمدتها بأسها من العثور على العشيق المثالي ، بشغف مضاعف بأسباب الترف ! .. ونمت في أعماقها حاسة الروع بالكذب ثم صارت تستولى على أموال المرضى من زوجها بانتظام ، وتشتري حوائجها من التجار

بالنسيئة - التقييط - وترهق ليون بالمطالب ، فهي لا تحبه من أجل نفسه . بل إرضاء لنفسها هي ..

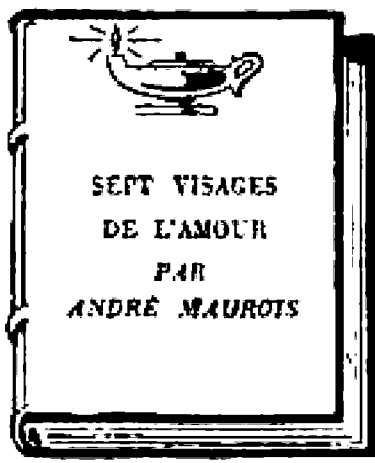
وتتراكم عليها الديون إلى درجة الدمار ! .. وتتزايد حاجتها إلى المال . ويمطرها دائئوها بالفواتير و « الكمبيالات » .. فتدركها الحيرة وتستنفد كل حيلة . وفي غمرة ارتباكها ، تفكر في الالتجاء إلى عشيقها الأول « رودلف » !

لكنه يردها في جفاء . فتضئ يائسة إلى مراب شيخ ، يبدى استعدادده لأن يقرضها . إذا .. ؟

لكن العاشقة الحاملة ليست « للبيع » ! .. وأثناء سيرها تمر على صيدلية « أوميه » . فتدخل . وتسرق جرعة من الزدنيخ .. وتشربها ! وتموت « إيما » ميتة رهيبة !

ترى هل قتلها الحب ؟

كلا بل قتلها رغبها في أن تعيش دائماً .. في حلم !



وجوه الحب السبعة

تلخيص وتعليق اندريه مورا

٧ - أوهام الحب

قناع الأوهام !

● وفيما يلي أقدم لك الوجه الأخير من وجوه الحب السبعة الذي تمثله قصص « مارسيل بروست » بعد أن قرأت معي على التوالي في الفصول الستة الماضية قصص : « مدام دي كليف » « مدام دي لافاييت .. » و « جوليا » « لجان جاك روسو » و « العلاقات الخطرة » « لجنرال دي لاكلو .. » و « الأحمر والأسود » « لستندال » و « زنبقة الوادي » « لبلزاك .. » و « مدام بوفاري » « لجوستاف فلوبر .. »

الحب .. « مرض » !

● في قصة « مدام بوفارى » رأينا كيف نحا « فلوير » نحو المذهب الواقعي البحت ، ونأى بكتاباته عن المذهب الخيالي « الرومانتيكي » . مما أثار عليه ثائرة النساء ، اللواتي رفضن قبول المذهب الواقعي كحل دائم للمشكلات العاطفية .. فكانت تلك الثورة سبباً في اتجاه خلفاء فلوير من القصصيين إلى مزج الواقع بالحلم ، والحقيقة بالخيال . كما فعل موباسان ، وبول بورجيه ، وأناطول فرانس الذين رسموا في قصصهم صوراً عديدة للزنا بين أفراد الطبقة الراقية ، ولكن بعد أن قنعوه بالأسلوب اللبق والخصافة اللغوية !.. لكن أحداً منهم لم يبلغ مرتبة « ستندال » في عمق التحليل وبراعة التصوير ، وإن كان موباسان قد فاق زميله في التزعة الإنسانية وإرهاق الحس

ثم ظهر - في أواخر القرن التاسع عشر - الفيلسوف « برجسون » مبشراً بفلسفته الجديدة ، داعياً الفنانين إلى التعمق وراء الألفاظ ، وإلى اكتشاف العواطف الحية التي يخفيها قناع الأسلوب واللغة .. فاستجاب كثير من الرسامين لدعوته ، محاولين اختراق القشور الخارجية إلى الطبيعة الحية .. كما استجاب له من كتاب القصة قاص عبقرى هو « مارسيل بروست » !

وبروست يختلف عن سابقيه في أنه لا يفتنى على مخلوقاته هالة

من الكمال والجمال والذكاء تجعلهن جديرات بالحب ، من جانب
 أى رجل يقع بصره عليهن .. وإثنا هو يوقع الرجال في حب نساء
 محرومات من المميزات التي تجعلهن في عين من يراهن ! .. فهو
 يصور في قصصه الحب « غير » المنطقي ، أو الحب الذي لا تبرره
 ظروفه .. ذلك لأنه يعتبر الحب « مرضاً » طارئاً أليماً يصيب
 الإنسان .. وكما تستطيع جرثومة صغيرة غير منظورة أن تسبب لنا
 حمى مرتفعة ، كذلك تستطيع امرأة تافهة عديمة المزايا والمؤهلات
 أن تجعلنا نعساء !

وقد صور بروت أطوار « مرض الحب » ، وأعراضه ،
 وعلاجه ، بدقة وبراعة منقطعتي النظير .. كما سئرى في قصتيه
 اللتين نعرضهما فيما يلي :

غرام «سوان»

● أما القصة الأولى « غرام سوان » فبطلها رجل مثقف مترف
 مرهف الإحساس يدعى « سوان » ، يقضى أكثر وقته مع الطبقات
 الأرستقراطية .. ويحظى بأجل نساءها كخليات .. لكنه يلتقي
 ذات يوم في المنرح ، بمحض المصادفة ، بامرأة تدعى « أوديت
 دي كريسى » .. وحين يقدمها له أحد أصدقائه ، يجدها « سوان »
 ذات جمال من النوع الذى لا يثير فيه أية رغبة أو اهتمام ، بل لأنها
 على العكس توحى إليه بشعور من النفور الجسماني ! .. ذلك أن
 لكل رجل « لون » من النساء يعجبه ويثير غرائزه ، وهذا اللون

تكون أوصافه ومميزاته في ذهن الرجل ومشاعره من مؤثرات غامضة مبكرة . أثناء طفولته أو صباه .. وقد كانت « أوديت » على عكس ما يشتهي سوان . وخاصة من حيث كونها سوية متبذلة ، ينقصها التهذيب !

وبعد لقاءهما بأيام . تكتب أوديت إلى سوان طالبة منه أن يأذن لها بزيارته لرؤية مجموعة تحفه الفنية !

ويأذن لها فتزوره في منزله . وفي كل مرة يراها يحس بالاكئاب والأسف لأن هذا الجمال الرائع ليس من النوع الذي يروقه ! وفي كل مرة تخرج من بيته يتسم لنفسه وهو يذكروها له إن الأيام سوف تمر بها بطيئتمثاقلة حتى يحين الموعد الذي يسمح لها بزيارته فيه مرة أخرى ! ثم يذكروها لجة القلق واللهفة والوجل التي ترجوه بها « أن لا يجعل فترة انتظارها تطول » ، وهي ترمقه بنظرة توصل وتيب تروقه !

وفي تلك المقابلات الأولى تبذل أوديت محاولات كبيرة كي تجذب سوان إليها . وكي تقلعه إلى البيئة التي تعيش فيها والحلقة التي تتردد عليها ، وهي صالون « مدام فردوران » .. وأثناء ذلك يبدأ سوان - بغير أن يشعر - يبلور شخصية أوديت في ذهنه ، ويضفي عليها من خياله سحراً لا تملكه .. بعد أن أُرْفِه اهتمامها به ، ولمشتها عليه ! وذات يوم يلحظ - وهو الفنان الشغوف بمعرفة الوجوه الحقيقية التي ينقل عنها أساطين الرسم لوحاتهم الرائعة -

مبلغ التشابه الصارخ بين وجه أوديت وبين صورة مشهورة للفنان العظيم بوتيتشيللى .. ومنذ تلك اللحظة يضى هذا الشبه على أوديت جمالا يزيد لها قيمة في عينيه ! وقد رأينا في نظرية « ستندال » عن التبلور الذى يولد الحب كيف تختلف الظروف التى تسبب هذا التبلور عند كل عاشق باختلاف هوايته المفضلة : « فالرجل الرياضى تجذبه براعة المرأة في ركوب الخيل مثلاً ، أو لعب الجولف أو التنس .. والموسيقى تجذبه براعتها في الغناء .. والسياسى تعجبه المرأة التى تشاركه ميوله السياسية ، وهكذا !.. ولما كان سوان من عشاق فن الرسم فقد جذبه نحو أوديت إعجاب الرسام الشهير بشيبتها القديمة التى أوحى له بلوحته الفنية .. ومن ثم فهو يوبخ نفسه على إساءته تقدير جمال مخلوقة سحرت شيبتها « بوتيتشيللى » للعظيم .. ويقول لنفسه إن هذه اللهفة التى تبديها أوديت نحوه ليست بالأمر النافه ، بل إنها لفضل كبير منها يعز مثيله ، فهى ترضى فيه أسمى نزعاته : حبه للفن ..

• • •

● « وأمد هذا الاكتشاف « سوان » بشعور جديد مكنه من أن يرفع أوديت في عالمه الخيالى إلى مرتبة لم تكن قد بلغتها قط من قبل ، وهى مرتبة أراقت عليها فيضاً من النبل الذى كانت محرومة منه بحكم بيئتها السوقية .. وبعد أن كانت هيئة هذه المرأة من حيث الوجه ، والجسم ، وشتى مقاييس الجمال ، تضعف من

إعجابه بها تبذرت شكوكه في جمالها وتوطد إعجابه بها ، ثم حبه لها ، بمجرد أن علم باختيار الرسام الشهير لمثلتها كنموذج للجمال المعصوم !.. وبعد أن كان يعتبر قبلاها ، بل والظفر بجسدها المباح غاية وضیعة لا تستحق الاشفاق صار ذلك هدفاً ممتعاً « فوق العادة » ، لأنه بمثابة تنويج لتعبده لتحفة فنية رائعة من تحف المتاحف ! ، إلخ

أما وقد تم « التبلور » على هذا النحو بفضل « الجاذبية الفنية » ، فإن سوان يذهب لزيارة مدام دي كريسى كل ليلة .. ولما كان قد وقع في هواها وتدلله حتى أذنيه ، فإنه لا يرى جمالا أو سحراً إلا في الأشياء التي تريق هي عليها من جمالها وسحرها !.. لكن حبه - وهو الأناني المنهك في شهواته - لا يقوى وتعمق جذوره في قلبه إلا بفعل الشك !.. فهو لا يرى أوديت إلا ليلاً ولا يعلم شيئاً عما تنفق فيه النهار كله وإذن فما زال شطر كبير من حياتها مجهولاً لديه تماماً !

وهكذا ، وكى يتجنب الشكوك ، يحاول أن يزداد التصاقاً بأوديت .. ولما كان السبيل الوحيد إلى رؤيتها في كل وقت هو الاندماج في نفس الجماعة التي تختلط هي بها . فإنه ينسى حصافته في اختيار رفاقه ويصبح رائداً متواضعاً مزماً من رواد صالون « مدام فردوران » السوفى .. الذى كان يأنف من سماع اسمه من قبل !.. وكما يحدث دائماً حين يتورط الرجال في الحب ، تتبدل

مشاعر سوان فيجد متعة في الاختلاط بتلك الجماعة ، لأنه حين يكون بينهم يستطيع أن يستمتع برؤية أوديت ، ويتملى بوجودها ، وحديثها .. وهكذا يصاب ذكاؤه وذوقه المرهف بشيء يشبه الشلل ، فيتوقفان عن العمل ! .. وإذا هو يقول لنفسه : « يا لها من جماعة جذابة ظريفة حقاً إن هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها يستمتع الإنسان بحياته ! .. بل ما أعظم تفوق هؤلاء الناس على المجتمع في ذكائهم ، وفي فهم .. وما أشد إخلاص مدام فردوران في حبها للرسم والموسيقى ، رغم مبالغاتها الصغيرة المضحكة ! .. وأى شغف بالأعمال الفنية يلحمه المرء هناك ، وأية رغبة في إدخال أسباب المتعة والمرور على نفوس الفنانين ! .. وفوق كل هذا فلأنك تحس هناك أنك حر تماماً ، تستطيع أن تفعل ما تشاء بغير حرج ، بغير قيد ! .. »

وما هذه « الفضائل » التي ينجبل للعاشق الولهان أنه يكتشفها في صالون مدام فردوران ، سوى انعكاس للمتعة التي يشعر بها حبه لأوديت ! .. وهنا يفتن « بروسب » في تصوير غباء وحقاقت رواد صالون مدام فردوران ، لأنه كلما أظهر مخافتهم ، قدم الدليل على الشلل الذي أصاب ذكاء سوان حين أصابه مرض الحب ! .. ونحن نتيقن هنا أول أعراض الداء ، التي يمكن أن نستخرج منها قاعدة عامة لا تحيب : هي أن الرجل حين يبدأ يقول

عن امرأة ذات مؤهلات متوسطة أو وضیعة : إنها « فائقة الذكاء » ،
أو « حاذقة فى الفن » ، فعنى ذلك أنه يحس بالأعراض الأولى
لمرض الحب !

• • •

● ولنعد إلى أوديت التى ، وقد اطمأنت الآن إلى استنحواذها
على قلب سوان ، كفت من جانبها عن بلورة شخصيته فى خيالها ..
وشبثاً فثبثاً ، يكتشف سوان أنها فى غيبتها عن ناظره تعيش حياة
غامضة ، تعتمد خلالها ولا شك إلى .. خيائه ! .. ويتحول الشك
فى قلبه إلى غيرة .. أو بعبارة أخرى إلى فضول شديد للوقوف
على أدق وأتفه حركات المحبوبة وسكناتها ! .. فالحب ليس اشتياقاً
إلى امتلاك الجسد بقدر ما هو شغف بامتلاك الروح والعاطفة
والعقل ومن هنا يعتمد الحب إلى محاولة التعرف على نفسية
محبوبته ، ويود لو رآها منشورة بأكملها أمام ناظره .. !

ولقد كانت حركات النساء وسكناتهن تبدو فى نظر سوان ،
إلى ما قبل تلك اللحظة ، أتفه من أن تستحق الاهتمام .. وكان يعتبر
ثرثرة النساء عن النساء عديمة القيمة أو الوزن ! .. لكنه لم يكد
يدخل فى مرحلة الحب الشاذة - مرحلة الغيرة - حتى استيقظ
فضوله إلى الوقوف على أتفه حركات أوديت وسكناتها .. ولا يمضى
وقت طويل حتى يكتشف الدليل على أنها تكذب عليه ، فيقول لها
ناصحاً : « ألا تدركين كم تفقدين من قوة إغرائك وجاذبيتك حين

تكذبين ؟ .. حتماً إنك أقل ذكاء مما كنت أحب .. ؟ ! »

لكن أوديت - مثل جميع المخلوقات الشغوفة بالكذب بطبيعتها - تعجز عن التزام الصدق في أقوالها فضلاً عن أنها ، بأكاذيبها وبما تخلقه هذه الأكاذيب في نفسية سوان من فضول دائم ، تحتفظ بسيطرتها عليه أضعافاً مضاعفة أكثر مما لو كانت صريحة معه وصادقة ! .. لكن هذه الملاحظة لا تصدق على جميع الرجال ، وإنما هي تصدق على سوان وحده لأن عنده من الفراغ والوقت ما يسمح له بالتفكير اللاتهاني في أسرار أوديت . ونميز كذبتها من صدقها !

وأخيراً يبلغ سوان مرحلة معاناة أفظع ألوان العذاب المبرح ، بسبب هذه المرأة العادية التافهة ! .. ورغم إدراكه أن الناس ينظرون إلى غرامه كأمر صبياني وجنوني ، فإنه لا يستطيع إلا أن يحس بأن هذا الغرام هو بالنسبة إليه كل شيء .. وذات ليلة ، وهو في حفلة موسيقية ، يصغي إلى عزف الكمان فيخيل إليه أن نغماً معيناً من أنغامها يعبر عن مشاعره ويفهم حبه مثلما يحسه هو ويفهمه ، أي باعتباره أسمى بكثير من الحياة ذاتها ، إلى حد يجعله على استعداد للتضحية بحياته من أجل هذا الحب !

وشيثاً فشيثاً تقوى عند سوان الأدلة على خيانة أوديت له ، ورغم ذلك فإنه يظل يربط نفسه إلى مركبتها .. حتى تدركه يوماً



و ذات ليلة ، وهو في حفلة موسيقية ، يصغى إلى عزف الكمان
فيخيل إليه أن نغماً معيناً من أنغامها يعبر عن مشاعره

نوبة من نوبات الصحو والتعقل ، فيقول لنفسه كمن يفيق من كابوس :

— كيف أنفقت سنوات طويلة من عمرى .. وتمنيت لنفسى الموت .. وخصصت بحبى الأعظم امرأة لا تعجبني ، ومن غير طرازي ؟

وكأنه يقول : « إن مرض الحب يخلق في أعماقنا صراعاً بين ذكائنا الواعى ، وبين إرادتنا الوضعية فى لحظات التعقل والصحو النادرة نستطيع أن نرى المحبوب كما يراه غيرنا ، على حقيقته .. أما فيما عداها ، ونحن سجناء فى ذواتنا وفى عالمنا الداخلى الخالص ، فنحن نعجز على أن نراه إلا متأثرين بالشعور الذى يوحى به إلينا .. هل هو جميل ؟ أم قبيح ؟ ذكى ؟ أم غبي ؟ نبيل ؟ أم وضيع ؟ .. نحن لم نعد نعلم كل ما نعلم أننا فى حاجة إليه .. وهنا يكمن مرضنا ا . »

وعند ذلك تنتهى قصة غرام سوان ..

((البرتين))

● أما القصة الثانية من قصص « مارسيل بروست » التى تصور أعراض وأطوار مرض الحب ، فتقع حوادثها فى « بعلبك » .. وبطلها شاب فى طور النقاهاة ، تأخذه جدته إلى شاطئ بعلبك ليستجم ، فيرى سرباً من الفتيات يتترهن على « البلاج » . ويلحظ

من بينهن فتاة ذات عينين واسعتين ضاحكتين ، ووجنتين كبيرتين ناعمتين ، تلبس رداء أسود من أردية القفز في لعبة البولو ، وتدفع إلى جوارها دراجة ، فيهرز ردفاها مع خطواتها ، وهي تصخب مع زميلاتهن وتتصايح ، بألفاظ سوقية ، تدخل في روع الفتى أنهن جميعاً خليلات فريق من محترفي سباق الدراجات .. وفي اللحظة التي تبلغ فيها السمرء الصاخبة مكانه وتمر إلى جواره ، يلمحها ترمقه بنظرة جانبية ضاحكة فيسائل نفسه : هل رآته ؟ وإذا كانت قد رآته فماذا يعنيه منه ؟ لا شيء بالطبع !

وحين تجاوزه يسمعها تنطق بعبارة في معرض الحديث مع إحدى زميلاتهن عن « الاستمتاع بالحياة » فتصدمه تلك العبارة وتدله على أن الفتاة ليست من الطراز الذي يعجبه - كما لم تكن « أوديت » من الطراز الذي يعجب سوان ! - ولكن شيئاً فشيئاً تخفى شخصية الفتاة الحقيقية من ذهنه ، وتحل مكانها - بفعل « الثبلور » - شخصية خيالية فإن الفتى يلاحظ تردد الفتيات على الشاطئ كل حين وغيابهن في بعض الأيام ، فيحاول برغمه كشف سبب ذلك الغياب ومواعيده .. وهل يتكرر مرة كل يومين ، أو كل ثلاثة أيام ؟ .. وهل الباعث عليه انشغال الفتيات في أمور أخرى ، أم رداءة الطقس ؟ .. ويتنج عن ملاحظته الدائبة لحركاتهن وسكناتهن غير المنتظمة ، ذلك الفضول الذي هو أكثر الأجواء ملاءمة لولادة الحب !

« وإلى جانب الشك الذى كان يساورنى كل يوم فيما إذا كنت سأراهن خلاله على الشاطئ أم لا ، طرأ تساؤل آخر جدى ، أكثر خطورة ، هو : ترى هل سيقع بصرى عليهن بعد اليوم أم لا ؟! .. ذلك أنى لم أكن أعلم شيئاً عن مدة بقائهن فى البلدة ، وموعد رحيلهن ، ووجهتهن عند الرحيل : هل هى أمريكا مثلاً ، أم باريس ؟ .. وكان ذلك القلق من جانبي كافياً لأن يزرع فى قلبي أول بذور الحب ،

وشيثاً فشيثاً يتصل حبل التعارف بين الفتى وسمرائه الفاتنة وبعد فترة طويلة من اللهفة ، والأمل والترقب ، يظفر الفتى منها بالقبيلة الأولى : « قبل أن أقبلها كنت أحيطها بغلالة من الغموض الذى أوحى به إلى تصرفاتها على الشاطئ قبل أن أعرفها فلما تركت بصرى يتزلق على وجنتيهما الورديتين الجميلتين ، اللتين تهدلت على بشرتهما الناعمة خصلات من شعرها الأسود المتعرج الرائع .. قلت لنفسى : « أخيراً سأذوق طعم ورد خديها الذى كنت أجهله .. » قلت ذلك لنفسى لأننى كنت أومن بأن هناك نوعاً من المعرفة لا تدركه غير الشفاء! .. وفيما كان فى يقطع الرحلة القصيرة إلى وجنتى « ألبرتين » ويقترب منهما تدريجاً ، رأيت بعيني عشرة وجوه للفتاة ، وكأنها آلهة بعشرة رؤوس ، كل وجه منها يترك مكانه للآخر فى مثل وميض البرق .. وملأ خياشيمى عطرها الخفيف المسكر .. ثم ، فجأة ، كفت عيناى عن أن تريا ، وانطبق

أتنى على بشرتها فلم يعد يشم . وإذ ذاك أدركت أتى أقبل وجنتى
« البرتين ! » .

ويتبين الفتى كلما ازدادت الصلة بينه وبين الفتاة ، أن تلك
التي طالما تمنى أن يعرفها . تلك الغريبة التي كانت تذرع الشاطئ ،
لا تمت بصلة إلى هذه التي بذل جهد الجبارة حتى ظفر أخيراً
بالتعرف إليها .. « ومنذ اليوم الأول الذى قلمونى فيه إليها أدركت
أتى أتحدث إلى مخلوقة لا تشبه فى شىء تلك التي صنعها خيالى
وأنا أرقبها كل يوم على الشاطئ ! .. لكنى برغم ذلك شعرت بنوع
من الالتزام الخلقى يحتم على أن أحفظ وعود الهوى التي قطعها لها
فى خيالى قبل أن أعرفها . وكأنى كنت قد وكلت نائباً عنى كى
يخطبها لى ، فصرت ملزماً بأن أتزوجها تنفيذاً لذلك التفويض
والوكالة ! »

• • •

● وهكذا يقبل الفتى محبوبته على علاقتها . محاولاً أن ينقل إليها
الصفات والمشاعر التي خلقها خياله ! .. وتستبد به الغيرة عليها ،
فيفرض عليها رقابة صارمة . أنه لا يطمع فى أن يظفر بجسدها
فقط . بل بروحها أيضاً . لأن امتلاك الجسد ليس فى نظره غير
مجرد قرينة على امتلاك الروح . والقلب - الذى هو الهدف الأكبر
لكل عاشق صادق فى هواه - وهكذا يوصد الفتى على « البرتين »
الأبواب ، ويراقبها كما يراقب السجان مجينه .. ولا يستريح باله

إلا أثناء نومها : « عندما كنت أراها ممددة على فراشي من رأسها إلى قدمها ، في وضع طبيعي غير متكلف ، كانت تبدو أشبه بغصن طويل من الأزهار .. وفي تلك الساعات كانت قدرتي على الاستغراق في الأحلام - التي لم تكن في العادة تواتني إلا في غيابها - تعاودني إذ ذاك في حضورها .. وهكذا كان نعاسها يحقق لي فرص الحب ، التي كان يتعذر تحقيقها سواء في غيابها أو حضورها : ففي غيابها كنت أفكر فيها وأتخيلها وأنا وحيد ، وهي بعيدة عني ، وعن متناول يدي وفي حضورها كنت أتحدث أو أنصت إليها فيتعذر على التفكير .. أما أثناء نومها فلم يكن علي أن أتكلم أو أصغى أو أتخيل ، أو أشعر أنها تنظر إلي .. فكان ينفسح أمامي مجال الاطمئنان .. إنها بمجرد إغماضها عينيها وفقدانها الوعي كانت تفقد جميع شخصياتها التي طالما خيت أمل منذ عرقها ، وتصير ملك يميني .. وروحها التي اعتادت أن تفر مني في كل لحظة ونحن نتكلم ، سواء بالفكر أو بالنظرة ، كانت أثناء نومها تسكن إليها وتلازمها أو لعلها هي كانت تسترد إليها وتأوى في جسدنا كل حواسها التي تهيم في الخارج أثناء يقظتها !

وهكذا كان يفرخ من روعي وهي نائمة أمام عيني وفي متناول يدي شعور قوي بأنني أملكها تماماً وأسيطر عليها .. بعكس الحال وهي مستيقظة !

« و طالما هي نائمة كنت أستطيع أن أحلم بها ، وأنظر إليها ..
والمسها وأعانقها ! .. فكنت أشعر عندئذ بالحب الذي يستحوذ على
القلب أمام شيء في نقاء مناظر الطبيعة الجميلة ، وروحانياتها ،
وغموضها .. شيء يذكرني بالليالي القمرية في خليج بعليك الهادئ
كالبحيرة ، حيث الأغصان لا تكاد تتحرك ، وحيث يستطيع
المرء حين يتمدد على الرمال أن يصغى بلا ملل إلى هدير أمواج
الجزر .. »

ولكن إذا كان النوم يعطى العاشق هدنة يستريح فيها من
وساوسه ، فإنه لا يشفيه منها تماماً حتى الموت ذاته لا يشفيه ..
فإن الصرح الضخم الذي بناه في أعماقه ، وهو الصورة التي
كونها للمحجوبة في قلبه وخياله ، يعيش أكثر مما تعيش هي ،
ويبقى طويلاً حتى بعد موتها ! .. وهكذا تموت « ألبرتين » ، لكنها
تظل حية في قلب عاشقها « لكي يضع موت ألبرتين حداً لآلامى
كان لا بد للصدمة التي قتلها في (تورين) أن تقتلها في داخلى
أنا أيضاً ، حيث لم تكن يوماً أوفر حياة منها الآن ! » ولكى
أتغزى عن فقدائها لم يكن على أن أنسى « ألبرتين » واحدة ، بل
عديدات فلأنتى لم أكن أوطن نفسي على تحمل الحزن من أجل
فقدان واحدة مهن حتى كانت تنتصب أمامى مائة « ألبرتين »
غيرها ! .. »

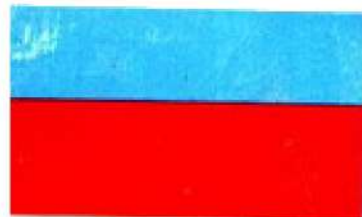
وهكذا كانت فجيعته تتجدد وتتوالد بلا انقطاع .. حتى صوت

المصعد كان يحى في رأسه ذكرى زيارة المخلوقة الوحيدة التى كان
بنلهدف شوقاً إلى زيارتها، والتى لن تأتى مطلقاً بعد الآن، لأنها ماتت :

« وبرغمى . كان قلبى يقفز بين ضلوعى كلما توقف المصعد
أمام الطابق الذى يقع مسكنى فيه فكنت أحدث نفسى ، للحظة
فقط ، قائلاً « ماذا لو كان الأمر كله مجرد حلم ؟ .. لعلها هى ..
إنها توشك أن تضغط على زر الجرس » .

وتظل هذه الهواجس زمناً ولا غرابة ، فإن نصيباً كبيراً
من الأفكار التى تكون ما نسميه بالحب . إنما تراودنا خلال
الساعات التى يكون فيها المحبوب ، وهو حى ، غائباً عنا ومن
ثم فنحن نعتاد أن نجعل شخصاً غائباً موضوع أحلامنا وهكذا
لا يغير الموت من الأمر شيئاً يذكر

وأخيراً ، بعد زمن يبدد السلوان خيال « ألبرتين » الجاثم ،
فتفيض صورتها تدريجاً حتى تختفى فلا يعود يحياها فى أعماق
الفتى حيث نهجم إلا منعش قوى ، أو عطر نفاذ ! وهكذا
المخلوقات التى نجها . لا تموت حقاً يوم يطويها الردى وإنما تموت
يوم ننساها !



مختارات كتابي إصدار جديد

عزيزي القارئ

في هذا الكتاب الممتع يلخص لك الكاتب العالمي أندريه مورو - ويحلل بأسلوبه الرائع - سبعا من شواخ القصص الفرنسية . باعتبار أن كلا منها تمثل لونا من ألوان الحب - أو وجوهه - المختلفة

فترى فيها نماذج للحب الطاهر
والحب الفاجر ! للحب العنيف .
والحب العنيف ! وهكذا نقوم معه
بسياحة ثقافية نتعرف خلالها على
هذه الروائع القصصية الخالدة
(جوليا أو هيلويس الجديدة) تأليف
جان جاك روسو (الأحمر
والأسود) ، تأليف ستندال
(العلاقات الخطرة) تأليف الجنرال
دي لاكلو (مدام بوفاري) ،
تأليف جوستاف فلوبر (الزنقة
السوداء) ، تأليف بلزاك (غرام
سوان) تأليف مارسيل بروس
(الأميرة دي كليف) ، تأليف مدام
دي لافاييت .

هلمى مراد

